بسم الله الرحمن الرحيم

معركة الإسلام والرأسمالية

سيد قطب

دار الشروق

معركة الإسلام والرأسمالية

الطبعة العاشرة
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م
الطبعة الحادية عشرة
١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م
الطبعة الثانية عشرة
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م
الطبعة الثالثة عشرة
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٣
فاكس : ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE

سيد قطب

معركة الإسلام والرأسمالية

دار الشروق

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا »
« مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ »
« فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا »

(قرآن كريم)

صيحة النذير

هذا الوضع الاجتماعي السيىء الذي تعانيه الجماهير في مصر .. غير قابل للبقاء والاستمرار .. هذه حقيقة يجب أن تكون معروفة من الجميع ، كي يمكن السير بعد ذلك على هداها في الطريق الصحيح .

نعم ! غير قابل للبقاء والاستمرار ، ذلك أنه مخالف لطبائع الاشياء ، لا يحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء ، يملي له في الاجل ، ويهيىء له فرصة البقاء .

انه مخالف لروح الحضارة الانسانية بكل معنى من معانيها ، مخالف لروح الدين بكل تأويل من تأويلاته ، مخالف لروح العصر بكل مقتضى من مقتضياته . ذلك فوق مخالفته لأبسط المبادىء الاقتصادية السليمة . ومن ثم فهو معطل للنمو الاقتصادي ذاته ، بله النمو الاجتماعي والانساني .

وكل وضع اجتماعي يكون من نتائجه شل قوى الامة عن العمل والانتاج ، فتعويقها بهذا عن النمو والتقدم .. هو وضع شاذ ، لا يفقد فقط حقه في البقاء ، بل يصبح بالفعل غير قادر على البقاء . فكيف اذا اجتمع الى هذه الآفة ، انه يهدر الكرامة الانسانية ، ويفسد الخلق والضمير ، ويقضي على كل معاني العدالة ، ويقتل الثقة الضرورية في المجتمع والدولة ، وينشر القلق ، ويذهب بالاطمئنان ؟

ان الذين يتشبثون اليوم بهذا الوضع الشاذ ، ويحاولون أن يقيموا له الاسناد ، سواء كانوا من المستغلين ، الذين يعز عليهم

ان يساهموا في التكاليف والاعباء الضرورية لاقامة المجتمع الصالح وصيانته ، او من الطغاة الذين يصعب على نفوسهم أن تجري العدالة مجراها ، فتحرمهم اسباب السلطان الزائف الذي لا يقوم على اساس ، او من المستمتعين الذين مردوا على المتاع الفاجر ، فهم لا يطيقون القصد فيه والاعتدال، او من رجال الدين المحترفين، الذين باعوا انفسهم لا لله ولا للوطن ، ولكن للشيطان ، ولمن ينقدهم فيها ثمنا بخسا دراهم معدودات ... ان هؤلاء جميعا انما يحاولون ما لا قِبَلَ لهم به ، لانهم يحاولون ضد طبائع الاشياء ! انهم انما يلقون بأيديهم الى التهلكة لانهم يضيعون كل فرص السلامة السانحة المتاحة . ويا ليتهم يذهبون وحدهم حين يذهبون ، ولكنهم سيذهبون ومعهم هذه الاوطان المنكوبة ، ما لم تأخذ هذه الاوطان على ايديهم وفي الوقت متسع ، قبل ان يحق عليها النذير الصادق الحاسم : « واذا أردنا ان نهلك قرية ، أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول ، فدمرناها تدميرا » .

ان الحقائق الواقعة لا تعالج ، كما نعالجها نحن اليوم ، بالخطب الوعظية ، أو الفتاوى المحتالة ، كذلك لا تعالج بتكميم الافواه ، وتحطيم الاقلام .. انما تعالج بحقائق واقعة تقابلها وتغيرها . والمعدات الجائعة لا تفهم المنطق — حتى ولو كان منطقا صحيحا لا احتيال فيه ولا التواء — وعلينا ان ندرك هذا قبل فوات الاوان . ولقد اوشك والله ان يفوت الاوان !

فليقل من شاء كيف شاء : من الطغاة المستغلين ، ومن رجال الدين المحترفين ، ومن الكتّاب المرتزقين ، والصحفيين المأجورين : ان الدعاة الى اصلاح هذا الواقع الاجتماعي السيىء ، شيوعيون ، او خارجون عن القانون ، أو خطرون على الامن والنظام ، أو دعاة هدم وفوضى ، وليحاربوهم بكل الوسائل الجهنمية ، التي يملكها الطغاة في كل زمان ومكان ، ليزجوا بهم في المعتقلات والسجون ، وليعطلوا لهم الصحف والاقلام ، وليحاربوهم في ارزاقهم واقواتهم، وليسدلوا الستار على حياتهم وذكراهم .

ان صوتا سيرتفع بعد ذلك كله ، ولن يمكن اسكاته ابدا : صوت المعدات الخاوية ، التي تملأ جنبات هذا الوادي . صوت الملايين التي تبذل العرق والدماء ، ولا تنال مقابلها لقمة الخبز جافة ، ولا خرقة الكساء متواضعة . صوت الجموع التي لم تقرأ في حياتها كلمة واحدة عن الشيوعية او غير الشيوعية ، ولكنها جموع من الاحياء ، تطالبهم معداتهم بلقمة الخبز ، وتطالبهم جلودهم بخرقة الكساء .

سيبقى صوت واحد لا يخفت ـ ولو خفتت جميع الاصوات ـ صوت الواقع الذي ينطق بلسان الملايين من تلك القطع الآدمية المحطمة الزرية ، التي مسختها تلك الاوضاع الاجتماعية الظالمة ، فحرمتها حتى حاسة الاحساس بالظلم ، وحتى شعور الانسان بالحرمان .

نعم ! وصوت مئات الالوف من الحطام الآدمي المتناثر في الطرقات ، اللاصق بالجدران ، الباحث عن الفتات في صناديق القمامة مع القطط الضالة والكلاب . ذلك الحطام المشوه الخلقة ، المقرح الجلد ، المسمول الاعين ، الشارد المتلصص ، أو الذليل المتسول .. هنا وهناك في كل مكان .

ذلك بينما الترف الفاجر الداعر يعربد في المواخير والقصور ، والذهب المتجمد من دماء الملايين ، يبعثر على الموائد الخضر وفي حجور الغواني ، والارباح الفاحشة تعجز أربابها عن العد والاحصاء بله الانفاق والاستهلاك !

من ذا الذي يستطيع ان يقول : ان وضعا اجتماعيا تلك ثماره المتعفنة الخبيثة يمكن ان يدوم ، مهما اقيمت له الاسناد المنتحلة من فتاوى المحترفين ، او مقالات المرتزقة المأجورين ، او عسف الطغاة والمستغلين ؟

انه عبث . عبث ضائع . عبث ضد طبائع الاشياء .

إني أتهم

.. أتهم هذه الاوضاع الاجتماعية الحاضرة بأنها تشل قوى الامة عن العمل والانتاج ، وتشيع فيها البطالة والتعطل ، وتقعدها عن استخدام مواردها الطبيعية والبشرية ، وتؤدي بها الى الضعف عن مواجهة الاخطار الداخلية والاخطار الخارجية ، التـي تتزايد وتبرز على مر الايام .

ان ارضنا تملك ان تنتج اضعاف ما تنتج من غلات . ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لان هذه الارض لا تزال موزعة كما كانت موزعة في اظلم عهود الاقطاع ، فهي محتكرة في أيد قليلة لا تستغلها استغـلالا كاملا ، ولا تدعها للقادرين على استغلالها ممن لا يملكون شيئا .. دع هذه الارض تخرج من هذا الاحتكار ، وتتداولها الايدي المتعطلة التي لا تجد ما تعمل .. حينئذ تتبدل الحال غير الحال .

وان الارض الصالحة للزراعة ليمكن ان تتضاعف . ولكن لماذا لا يتم هذا ؟ لان مشروعات الري والصرف الكبرى معطلة لا تنفذ ! لماذا ؟ لانها تحتاج الى المال ، والمال في أيدي الراسماليين ، والدولة تشفق أن تحمل رؤوس الاموال نصيبها الواجب من الاعباء . لماذا ؟ لان الدولة لا تمثل الجماهير المحتاجة ، انما تمثل رؤوس الاموال . دع مقاليد الحكم للشعب حقا . حينئذ سيجد الشعب في خزائنه من حصيلة الضريبة العادلة ، ما يصلح به الاراضي البور ، في فترة معقولة من الزمان .

وان هذه الارض لتحوي كنوزا من الخامات والقوى المعطلة التي لا تستغل . لماذا ؟ لان الدولـة فقيرة وعاجـزة وغير جادة ومشغولة .. فقيرة لا تجد المال ، لان ميزانيتها تعتمد على دخول

الجمارك التي يؤديها الفقراء قبل الاغنياء ، ولا تعتمد على ضرائب الدخل المباشرة التي يؤديها الاغنياء قبل الفقراء ! وعاجزة لان اداتها الادارية فاسدة . افسدتها الاستثناءات والمحسوبيات ، وسوء النظام ، وبلادة « الروتين » ، كما افسدتها الرشوة ، وفساد الذمة ، وتعفن الضمير . وغير جادة ، لانها لا تحس حافزا يدفعها الى زيادة الثروة القومية العامة ، ما دام الاثرياء الذين تمثلهم يحسون التخمة ، ويعجزون عن تصريف ما في أيديهم من ثروات . ومشغولة . مشغولة بذلك الصراع الحزبي في حلبة الاقزام ، التي أقامها الاستعمار منذ ربع قرن باسم الدستور ! ووقف يتفرج ويتسلى ، كما كان الاشراف في القرون الوسطى يتسلون بصراع العبيد والاقزام . ثم هي مشغولة بحماية تلك الاوضاع الاجتماعية الشاذة المناقضة لطبيعة الاشياء ، والتي تحتاج الى جهد ضخم من الاداة الحكومية العاجزة الفاسدة الشلاء .

وان في هذه الارض من الثروات البشرية والقوى الانسانية ما لا يقل عما فيها من الخدمات والقوى . ولكن أحدا لا يستغلها ولا يلتفت اليها . لماذا ؟ لان المصلحة العاجلة للسادة الراسماليين الذين تمثلهم الدولة ، لا تقتضي استغلال هذه القوى ولا استنقاذها من التبطل والضياع . فهي تدعها للجهل والمرض والفقر تأكلها أكلا ، ثم تدعها للتبطل يحيلها مخلوقات تافهة : اما مشردة في الطرقات ، واما جالسة على المقاهي والحانات ، واما عاملة كمتعطلة لا تنتج الا التافه اليسير مما تملك ان تنتج ، لان النظام الذي تعمل في ظله نظام فاسد ، ولان الاجور التي تتناولها لا تحفز الى الاخلاص ، ولان المستقبل الذي ينتظرها ظلام في ظلام .. والدولة لا تحاول ان تعمل شيئا جديا لاستنقاذ هذه الثروات المبددة الضائعة في سفه واسراف .

ذلك أن استنقاذ هذه الثروة القومية من القوى البشرية يكلف رؤوس الاموال بعض التكاليف . ودون هذا وتقف الدولة متحرجة واجمة خاشعة !

وهكذا يدور دولاب العمل في الدولة وفي الشعب ، لا ليسد حاجة سكانها جميعا ، بل ليسد حاجة حفنة قليلة هـي القادرة وحدها على الانتاج وعلى الاستهلاك . ولا تعمل الدولة ولا الامة لرعاية المصالح الضخمة للعشرين مليونا من السكان ، بل لرعاية المصالح المحدودة لفئة منها معدودة .

ثم يتزايد السكان وتتناقص الغلة ، لا لعجز في طبيعة الامة عن العمل ، ولا لنقص في كفاياتها واستعداداتها الفطرية ، ولكن تبعا لهذا الاختلال في توزيع الثروة القومية ، وفي توزيع المغانم والمغارم ، ومن ثم نتخلف والدنيا تركض ، ونضعف وخصومنا على الابواب تتزايد قدرتهم على الاعتداء ، وتهبط كرامتنا الدولية يوما بعد يوم ، ونحن نتحلق ونتصايح : يحيا ويسقط ، حول الصراع الحزبي التافه في حلبة الاقزام !

***

اني اتهم .. اتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تهدر الكرامة الانسانية ، وتقضي على كل حقوق الانسان .

ومن ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء الملايين من الفلاحين الجياع العراة الحفاة ، الذين تأكل الديدان احشاءهم ، وينهش الذباب مآقيهم ، وتمتص الحشرات دماءهم .. ناس . يتمتعون بكرامة الانسان وحقوق الانسان ؟

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء الصبية الذين يجمعون من القرى والكفور للعمل في « التراحيل » لتنقية المزارع في الدوائر والتفاتيش من الآفات ، وجسومهم تنغل بالآفات ، وينقلون عشرات الاميال ومئاتها بعيدا عن اهلهم ـ حيث يعودون او لا يعودون ـ لا متطوعين ولا مختارين ، ولكن قسرا وغصبا ، في مقابل القروش والملاليم التي يؤكل نصفها قبل أن تصل الى ايديهم الهزيلة النحيلة .

من ذا الـذي يقول بأن هـؤلاء ناس لهم كرامـة الانسـان وحقوق الانسان ؟!

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن الملايين من « الانفار » في دوائر الاقطاع ناس ، والسيد المالك يملك أن يحيي ويميت ، وأن يمنع ويمنح ، وأن يرزق ويرزأ ، والعبيد لا يملكون شيئا ، حتى ولا حق البقاء في الدائرة ، ولا التعويض الضئيل عنـد الطرد من الرحمة . فاذا غضب السيد ـ بل عامله ـ فقد طرد « النفر » مع زوجه واولاده ، وقد سلبت منه جاموسته ، وقد عاد كوخه الـى السيد المالك الذي أنعم به عليه ، وخرج هو شريدا طريـدا من رحمة الارض جميعـا !

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن مئـات الالوف من العجزة المتسولين ، الباحثين عن الفتات في صناديق القمامـة ، العـراة الجسـد ، الحفاة القدم ، المعفري الوجوه ، الزائغي النظرات .. ناس لهم كرامة الانسان وحقوق الانسـان ؟ وهم لا يجدون ما تجده كلاب السـادة في بيوت السراة !

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء الالوف من الخدم في البيوت ، و « الخدمة السائرة » في الدواوين ، الذيـن يحرمهـم القانون حتى حق تكوين النقابات ، لان السادة يأبون عليهم هـذا الحق ، كي لا يتجرأ العبيد على الاسياد ، وكي لا تكون لهم حقوق ـ ولو نظرية ـ يرفعون بها جباههم في وجوه الاسياد ...

من ذا الذي يجرؤ على القول بأن هؤلاء ناس ، لهـم حقوق الانسان وكرامة الانسـان ؟!

ودعك بعد هذا من تلك الخرافة التي تتحدث عن « الامـة مصدر السلطات » وعن حق الانتخاب وحرية الاختيار .. انهـا خرافة لا تستحق المناقشة ، فهذه الامة مصـدر السـلطات هي هذه الملايين الجائعة الهزيلة ، الجاهلة المستغفلة . هذه الملايين المشغولة نهارها وليلها بالبحث عن اللقمة . الملايين التي لا تملك ان تفيـق

لحظة لتفكر في ذلك الترف الذي يسمونه حق الانتخاب وحرية الاختيار . الملايين التي يشير لها السادة فتنتخب ، ويشير لها السادة فتمتنع ، لان هؤلاء السادة هم خزنة أرزاقها وأقواتها ، وملاك الاقطاع الذي يؤوي هؤلاء الجياع !

انها خرافة أن تتحدث في عهود الاقطاع عن الدساتير والبرلمانات . ونحن نعيش في عهود الاقطاع بكل مقوماتها ، لا ينقص منها شيء الا تبعات السيد تجاه رقيق الارض ، فقد سقطت عنه هذه التبعات في عصر الدستور ! أجل فلقد كان السيد فيما مضى مسؤولا عن رقيقه ، يزوج بناتهم ويمنحهن ، ويعالجهم اذامرضوا، ويؤدي عنهم نفقات الجنائز والاعياد .. فأسقط عهد الدستور كل هذه التكاليف عن كاهله ، وابقى له الرقيق ، يأكل من ابدانهم ما يشاء كيف شاء !

ان الحديث عن الدساتير والبرلمانات يصلح مادة فكاهة ، يتسلى بها الفارغون . ولكنه لا يصلح حديث أمة تريد الجد ، وتنظر الى الواقع بعين الاعتبار !

***

اني اتهم .. أتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تفسد الخلق والضمير ، وتشيع الفساد في المجتمع والدولة ، وتؤدي الى الانحلال الفردي والقومي .

ان تضخم الثراء في جانب ، وبروز الحرمان في جانب ، من شأنه أن يخلق طبقة من الاثرياء الفارغين المتبطلين ، الذين يجدون لديهم وفرة من المال ، ووفرة من الوقت ، ووفرة من الطاقة الجسدية التي لا بد لها من متصرف .

والطاقة التي لا تصرف في العمل ، والتي لا تشغلها فكرة اعلى من الذات ، لا بد أن تجد لها طريقا آخر : طريق المتاع الجسدي

الغليظ ، والرفاهية المترفة الناعمة ، والموائد الخضر والسباق ، والسكر والعربدة والاستهتار ...

وماذا يصنع اولئك الفتيان المرد ، واولئك الشيوخ المترهلون، الذين تجبى اليهم ثمرات الكد والعرق والدماء ، من جهود الالوف الجياع الحفاة العراة .. ماذا يصنع أولئك وهؤلاء بتلك الالوف والملايين التي تصل اليهم وهم قاعدون ؟ ماذا يصنعون ولم يطهر العمل قلوبهم وايديهم ، ولم يشغل العمل افكارهم ومشاعرهم ؟ ماذا يصنعون الا ان يفكروا في لذائذ الحس ، وشهوات الجسد ، والترف الناعم الرخيص ؟

وهم يملكون قوة الاغراء .. المال .. وعلى الضفة الاخرى اولئك المحرومون التاعسون ، ضعفاء أمام ذلك الاغراء ، طلاب حياة وطلاب متاع كذلك ، لا يجدون اليهما سبيلا من وجه شريف ... فالشرف آخر حرفة في مصر تدر على أصحابها الكفاف !

عندئذ ينقسم المحرومون والمحرومات فريقين : فريق السماسرة وفريق الضحايا . فريق القوادين وفريق الرقيق — ولا عبرة بالفريق الثالث : فريق الشرفاء الذي يأبى أن يخضع للاغراء العنيف . انه فريق الذين لا يريدون الحياة ولا يريدون المتاع ! او فريق الابطال والقديسين . وما كل الناس ولا كثرتهم ابطال ولا قديسون !

ولا بد من حاشية واذيال ، لاولئك الفتيان المرد ، وأولئك الشيوخ المترهلين . لا بد من حاشية تملق كبرياءهم ، وتؤمن على سخافاتهم وحماقاتهم . وهم واجدون هذه الحاشية في ذلك الحطام الآدمي التافه ، الذي أحالته الاوضاع الاجتماعية الفاسدة ديدانا طفيلية وامعات !

وهكذا تتكون حلقة مفرغة ، من الشباب الفارغ والشيخوخة الآسنة ، ومن الرق الابيض والنخاسة القذرة ، ومن الملق الحقير وفناء الشخصية والانحلال .

وندع هذه الحلقة الآسنة ، لتقع العين على حلقة أخرى نشيطة متحركة عاملة . ولكن للشيطان وفي حقل الشيطان . حقل الرشوة والارتشاء . حقل السرقة والاختلاس وفساد الضمير .

انه العوز في جانب والاغراء في جانب . انه الموظف ذو العيال الذي يلهب الغلاء ظهره بسياطه الكاوية ، ويمتص عصارة قلبه ودمه ، ليسلمها الى السادة المولين ، الذين تحميهم الدولة بتشريعاتها ، وتعمل لحسابهم وحدهم لا لحساب الجماهير . انه ذلك المخلوق الضعيف وأمامه اغراء المال الحرام . المال الذي يريد أن يتضاعف بالغش والسرقة والتهريب والاحتكار .

وقد لا يقف الفقر هكذا أمام الثراء . انما يقف المال أمام المال . تقف المصلحة المشتركة بين الغنى الفاحش والغنى الفاحش. تقف المؤامرة على حقوق الجماهير ومصالح الجماهير . الجماهير الضعيفة التي لا تملك شيئا تذود به عن نفسها في المعركة ، حتى ولا قوة اليقظة والانتباه !

وهذه قضايا الذخيرة الفاسدة في الجيش ، وتهريب التموين الى اسرائيل ، والاختلاسات في الاموال العامة ... هذه هي تقشعر لقذارتها وبشاعتها النفوس . ولكنها في صميمها ليست منفصلة عن الاوضاع الاجتماعية القائمة ، فهي ثمرتها الطبيعية التي لا تثمر سواها ، وما يمكن ان تختل موازين العدالة الاجتماعية هذا الاختلال ، ثم تبقى للمجتمع قواه الخلقية ومبادئه ومثله . انما هي الحماة الآسنة يصب فيها الوحل والقذى ، وتنمو على حوافها الحشرات ، وتنسل في جوفها الديدان ، ثم تتسع وتتسع حتى تحيل المجتمع كله بركة من الوحل المنتن العفن ، تغوص فيها الضمائر والاخلاق ، وتغرق فيها القوميات والاوطان .

وهنا ينبعث السادة الاجلاء من هيئة كبار العلماء ، من سباتهم الطويل العميق ، ينعون الاخلاق الضائعة والفواحش الشائعة، ولا يدعون ثبورا واحدا بل يدعون ثبورا كثيرا ! فلننصرف

الى السادة الاجلاء لحظة نسمع منهم الوعظ الشريف ، ترويحا للنفس عن ذلك الجد الكريه الذي نعانيه !

هذه بعض عريضتهم الى رئيس الحكومة في يوم من الايام :

« وان الناظر في حال امتنا العزيزة ، وما آل اليه أمر الدين والخلق فيها ، ليهوله ما يرى، ويأخذه كثير من الحزن على حاضرها الذي صارت اليه ، ويخالجه كثير من الاشفاق على مستقبلها الذي هي مقبلة عليه . فقد استهان الناس بأوامر الدين ونواهيه، وجنحوا الى ما يخالف تقاليد الاسلام ، ودخل على كثير منهم ما لم يكن يعهد من اخلاق الاباحية والتحلل ، جريا وراء المدنية الزائفة ، واغترارا ببريقها الخادع ، وكثرت عوامل الافساد والاغراء في البلاد ، ولا سيما امام ناشئتها وفتيانها ، المرجوين للنهوض بها ، والاخذ بيدها في حاضرها ومستقبلها ، فمن حفلات ماجنة خليعة ، يختلط فيها النساء بالرجال على صورة متهتكة جريئة ، تشرب فيها الخمر ، ويرتكب فيها ما ينافي المروءة والخلق الكريم ، الى اندية يباح فيها القمار ، ويسكب على موائدها الذهب ، وتبتز فيها الاموال ، وتزلزل بسببها البيوت والكرامات ، الى ملاعب للسباق والمراهنات تنطوي على الوان من الفسادواضاعة المال، الى مسابقات للجمال انما هي معارض للفسوق والاثم ، يرتكب فيها ما يندى له جبين الدين والخلق والمروءة ، ويباح فيها من المحرمات أكبرها واخطرها ، الى شواطىء في الصيف يخلع فيها العذار ، ويطغى فيها الاشرار ، الى اخبار ذلك تذكر وتنشر ، وتوصف وتصور ، وتستثار بها كوامن الشهوات والغرائز ، في غير تورع ولا حياء ، الى كثير من الوان المنكرات وفنون الموبقات .. »

وي ! وي ! اوهذا هكذا ايها العلماء الاجلاء ؟ ! يا سبحان الله ! ولا حول ولا قوة الا بالله ! حقا انه لأمر جلل يوجب النقمة ويستوجب اللعنة ...

ولكن ! وقد قدر لشفاهكم الشريفة ان تنفرج عن كلام في

المجتمع ، افما كانت هناك كلمة واحدة تقال عن المظالم الاجتماعية الفاشية ، وعن راي الاسلام في الحكم ، ورايه في المال ، ورايه في الفوارق الاجتماعية التي لا تطاق ؟

وما الذي كنتم تنتظرونه ايها السادة الاجلاء من اوضاعنا الاجتماعية القائمة الا هذا الفساد ، ألتي تناولت خطبتكم الشريفة ظواهره ، وتجنبت خوافيه ؟ اوضاعنا الاجتماعية التي تجد منكم السند والنصير ، والتي يصيبكم البكم فلا تشيرون اليها عارضة من قريب او من بعيد ، لان السكوت عنها من ذهب : ذهب ابريز !

***

اني أتهم .. أتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تحيل تكافؤ الفرص خرافة ، والعدالة بين الجهد والجزاء اسطورة . وبذلك تشيع القلق والاضطراب في نفوس الافراد والجماعات .

انه يكفي في مصر ان يحسن الطفل اختيار ابويه ، كيما تتاح له الفرص جميعا ، ويتخطى عقبات الطريق وثبا ! فلئن فاته ان يحسن اختيار ابويه ، فلا اقل من ان يختار له زوجة قد أحسنت اختيـار أبويها ، فولدت في بيت وزير او كبير ، كي تحمله على جناحيها وتطير ! فالا تكن قد أحسنت اختيار أبويها فلا أقل من ان تكون قد أحسنت اختيار تقاطيعها وملامحها . وهذه تعويذة تفك العقد ، ويدخل بها على الحكام ويخرج . كما كانت كتب السحر تصف بعض التعاويذ في قديم الزمان وسالف العصر والاوان !

والدعابة التي أطلقها الشاعر الملهم « محمود ابو الوفا » في : « انفاس محترقة » :

أخي . قل لي ولا تخجل بماذا قد ترقيتا ؟
وما أنت بذي جاه وعمرك ما تزوجتا ؟

لم تكن دعابة عابرة ، انما هي ايماضة الحقيقة في ضمير هذا

الواقـع الاجتماعي المريض ، انطلقت علـى لسان شاعر صادق الحس موهوب .

ان تكافؤ الفرص في مثل هذه الاوضاع خرافة لا تقل عن خرافة المساواة امام القانون ! والا فأي تكافؤ بين الكتلة من اللحم يدفع بها رحم في الكوخ ، فتتلقاها الارض ، او حجر أقذر من الارض ، يسلمها الى الميكروب والمرض ، ثم يكلها الـى الجوع والشظف ، حتى اذا غالبت ذلك كله ، دفع بها الـى الحرمـان والاهمال . وبين اخت لها وليدة على يدي طبيب ، وفي حضن ممرضة ، موكولة الى العناية والرعاية ، فالى المناغاة والتدليل ، فالى روضة الاطفال فالجامعة ، فالى كرسي الديوان او مسـ ـط الثراء في الشركات والدوائر والتفاتيش ؟ !

اي تكافؤ بين ذلـك الذي احسن اختيار ابويه وخاب في الدراسة ، وذلك الذي لم يوهب حسن الاختيار ولو كان من أوائل المتخرجين ؟

أي تكافؤ في عالم الوظيفة او في العالم الذي يسمونه «حرا» وذلك المحظوظ المرموق يخطو والاسرة والجاه يفتحان له مغاليق الحياة . وهذا النكد التاعس تتلقاه الصدمات والعقبات في كل شبر من طريقه البطيء الطويل ؟ !

واذا كان تكافؤ الفرص خرافة ، فالعدالة بين الجهد والجزاء اسطورة ! والا فمن ذا الذي يقول : ان هذه الملايين الجائعة انما تجوع لانها ملايين من الكسالى ، الذين لا يريدون العمل والتعب ؟ يقال هذا عن فرد ، او عشرة ، او عن مئة ، او عن الف ، او عن عشرة آلاف .. اما ان يقـال عن الملايـين ، فدون هذا ويمـج الحديث ، وتسخف العبارة ، وتعجز المرائر عن الاحتمال .

ان الذين يعملون في هذا البلد هم الذين يجوعون . اعني الذين يعملون اعمالا شريفة ، لا تدخل في قائمة السرقـة والاختلاس ، والغش والتدليس ، والارتشاء واستغلال النفوذ ، وتجارة الرقيق

الابيض ، والخيانة الوطنية ... الى آخر ما يملك به الرجل او المرأة في مصر ان يصبح بين يوم وليلة من الوجهاء والاثرياء !

نحن لا ننكر التفاوت في الاستعدادات الفردية والقـدرات الذاتية . ولكن اي تفاوت يمكن ان يبرر الفوارق بين ملايين عبود ، وفرغلي ، وامين يحيى ، والبدراوي ... وامثالهم . وبين الملاليم التي ينالها عمالهم وعبيدهم وفلاحوهم ؟

واي تفاوت يمكن ان يبرر الفوارق بين مرتب الوزير ووكيل الوزارة والمدير العام . ومرتبات الكتبة والسعاة والفراشين فـي الدواوين ، وهي تبلغ خمسين ضعفا في بعض الاحايين ؟

ان اية مغالطة عن تفاوت المقدرات الفردية لتقف حسيرة خجلى امام الواقع الصارخ ، الذي يعجز المدافعون عـن تبريره وتفسيره ، عجزه هو ذاته عن الاستمرار والبقاء ، بحكم مناقضته لطبائع الاشياء .

ان مجتمعا هـذه سماته ليشيع القلـق في نفوس افراده وجماعاته . القلق الناشىء من ان الجهد لا يلقى جزاءه ، والجد لا يثاب عليه ، والوسائل الملتوية تبلغ بصاحبها ما لا تبلغ الوسائل المستقيمة ، والولادة في بيت وزير أو كبير تجدي ما لا يجدي الذكاء والموهبة والخلق والعمل جميعا !

ولقد مضى علـى مصر اكثر من ربـع قرن منـذ تسلمت مقاليدها ، وتوالت على حكمها الوزارات والاحزاب . وما من عهد من هذه العهود خلا من الاستثناء البغيض . تارة بالآحاد والعشرات، وتارة بالمئات والالوف . حتـى شاع في الدواوين وعلى السنة الناس ان الواسطة هـي الطريق الوحيد القصير ، ووقـر في ضمائرهم ان لا شيء يعدل ان تكون ذا جاه ، أو محسوبا ، او ان تسلك على اية حال طريقا غير مستقيم !

ومتى فقدت النفوس الثقة في الخير والواجب ، والامانـة

والضمير ، فقد فسد كل شيء ، وسرى القلق والتوجس ، وعم الاهمال والاستهتار . وقد انتهينا الى هذا . وانتهينا معه الى ما هو ادهى : انتهينا الى الشك المطلق في صلاحية الادارة المصرية ، والى الترحم على ايام الاحتلال . وهذه كارثة . فليس اخطر من ان يكفر المواطن بوطنه وبشعبه وبنفسه .

ان الجريمة التي ارتكبتها سياسة الاستثناء هي هذه الجريمة . جريمة تزعزع ثقة المواطنين في الحكم الوطني . جريمة انهيار الشعور الداخلي بقيمة الاستقلال ، وبضرورة الاستقلال !

***

اني اتهم ... اتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها تدفع بالناس دفعا الى أحضان الشيوعية ، وبخاصة ذلك الجيل الناشىء من الشبان الابرياء .

حين يقال للملايين من الكادحين الذين لا يجدون ما ينفقون : ان الشيوعية تضمن لكم كفايتكم ، وتمنع الترف الفاجر الذي يزأوله أثرياؤكم .. يكون لها فعل السحر في نفوس الجماهير .

وحين يقال لهم : ان الشيوعية تحرمكم حرية العمل ، وحرية القول وحرية التفكير ، فانهم لا يحسون انها تسلبهم شيئا حقيقيا يملكونه .

ان الشيوعية لا تحوي سحرا ولا سرا . ولكن الجماهير معها على راي المثل العامي الذي يقول : « ضربوا الاعور على عينه قال : خسرانة خسرانة ! » أو المثل الآخر الذي يقول : « قالوا للقرد : ربنا حيسخطك. قال حيعملني غزال ؟! » فالعور والقرود ــ اي الذين لا يملكون شيئا يخسرونه، واليائسون من ان تكون هناك حال اسوأ من حالهم ــ هم الذين تسحرهم الشيوعية . لان كل تغيير قد يفيدهم . وهو على اية حال لا يضيرهم شيئا . اما الذين يملكون شيئا . الذين يملكون حرية القول وحرية الفكر . ويملكون قبلهما حرية

الرغيف ، ولا تصطدمهم تلك الفوارق الاجتماعية السحيقة .. فهم اعداء الشيوعية الطبيعيون .

لهذا لم تجد الشيوعية لها الى اليوم تربة صالحة في السويد او النرويج او الدانمارك ، لا لان اهل هذه البلاد يملكون اية فكرة عن الحياة اعلى مما يملك الشيوعيون ، ولا لان لهم أهدافا روحية او عقيدة انسانية . بل لانهم يملكون أكثر ما تمنحه الشيوعية ، ويفقدون بالشيوعية أشياء حقيقية يملكونها .

حين يقال للعامل في تلك البـلاد : ان الشوعية ستوفر لـك كفايتك وضمانات حياتك . قد يسخر ! فكفاياته كلها مضمونة ، بل رفاهيته كذلك . وحين يقال له : ان الشيوعية ستضمن لك عملا دائما ، وتحميك من نتائج التعطل قد يسخر ! لانه يجد ضمانات حياته عاملا ومتعطلا ، ولا يحس قلقا في حياته من هـذا الجانب او ذاك .

ولكن حين يقال له : ان الشيوعية ستجندك للعمل بلا حرية ولا اختيار ، او ستقضي علـى حريتك النقابية ، او ستضغط على حرية القول والكتابة والتفكير .. فان ذلك يفزعه ويزعجه . ذلك انه يملك تلك الحريات فعلا . يملكها حقيقة واقعة في حياته اليومية، لا في الكتب والدساتير المكتوبة .. عندئذ تعجز الشيوعية ان تغزو قلبه لانها لا تمنحه شيئا ينقصه ، وعلى العكس تسلبه مزايا حقيقية يملكهـا .

كذلك الحال في امريكا .. ان العامل الامريكي يعرف انه حينما قرر عمال المناجم الاضراب ، وصرّح الرئيس ترومان بانه يفكر في اتخاذ تدبير شديد لانهاء هذا الاضراب ، هتف العمال : « دع ترومان يأتي هنا ويحفر الارض معنا » .

ونشر هذا الهتاف في الصحف على أعمدة بحروف بارزة ، فلم يتحرك شرطي واحـد ليقبض على عامل ، فضلا علـى ان يضربه ويسجنه ويعذبه .

وحينما كتب صحفي طويل اللسان عن ابنة ترومان كتابة بذيئة ، لم يزد رئيس الدولة التي تحكم نصف العالم عن ان يكتب له رسالة شخصية « بأنه سيضربه بنفسه عندما يقابله ! » ولم يتحرك « الجستابو » ليدق عنق هذا الصحفي ، او يقتله سرا ، ويرمي بجسده في جب !

والعامل الامريكي يعلم ان روسيًا لا يملك ان يهتف ضد ستالين ، ولا أن يكتب حرفا واحدا عن اسرته .. ولهذا يفزع من الشيوعية !

اما هنا فعبود باشا يملك ان يحطم نقابات عماله التي ترتكب جريمة مطالبته بتنفيذ قانون من قوانين الدولة ، يزيد لقيمات في نصيب العامل باسم اعانة الغلاء . والدولة واقفة تتفرّج وتشجع سعادته وهو يسحق هذه النقابات سحقا . والجمعية الزراعية تشرد موظفا خدمها سبعة عشر عاما ، وخدمها أبوه قبله لانه طالب باعانة الغلاء !

للسان ان يتطاول على ذاته الكريمة ! .

اما حرية القول وحرية الفكر ، فيسأل عنها القلم السياسي. وتسأل عنها المعتقلات والسجون ، وتسأل عنها حوادث التعذيب في كل قضية سياسية في تاريخ مصر الحديث !

ان الشيوعية في ذاتها فكرة صغيرة لا تستحق الاحترام عند من يفكرون تفكيرا انسانيا أعلى من الطعام والشراب ، وعند من يعرفون أفكارا أخرى عرفتها الانسانية قبل الشيوعية ، وهي اعدل وارقى . ولكن الاوضاع الاجتماعية القائمة تضفي على الشيوعية سحرا وجاذبية ، واذ كنا نعتقد ان الشيوعية فكرة تعسفية وضيقة، وفيها من سوء الظن بالبشرية ، ومن الاحقاد المسمومة ما فيها .. فاننا نعتبر الاوضاع القائمة مجرمة ، ترتكب في كل يوم جريمة تحبيب الشيوعية للجماهير المحرومة، وتزينها في نفوسهم ، وتدفعهم اليها دفعا ، للخلاص من ذل الاقطاع ولذع الحرمان ، وظلم

الاوضاع المناقضة لطبائع الاشياء .

واخيرا فانا اتهم الاوضاع الاجتماعية القائمة بانها مناقضة في جملتها وتفصيلها لروح الدين كله . الدين منذ ان عرفت البشرية اديانها السماوية ، وهي اكثر مناقضة للاسلام بكل تاويل من تأويلاته . وكل ما يدعيه المحترفون من رجال الدين ليسندوا به هذه الاوضاع ، انما هو افتراء على الدين ، لا يجد له سندا من حقائقه ومبادئه : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » .

ان الاسلام ليصرخ في وجه الظلم الاجتماعي ، والاسترقاق الاقطاعي وسوء الجزاء ، وانه ليمد المكافحين لهذه الاوضاع بقوة ضخمة للكفاح والصراع .

وما من وضع اجتماعي هو ابعد عن روح الاسلام من اوضاعنا القائمة ، وما من اثم اكبر من اثم الذين يدينون بالاسلام ، ثم يقبلون مثل هذه الاوضاع ، او يبررونها باسم الاسلام ، والاسلام من مثلها براء .

ان هذه الاوضاع غير قابلة للبقاء والاستمرار . ذلك انها مخالفة لروح الحضارة الانسانية بكل معنى من معانيها . مخالفة لروح الدين بكل تأويل من تأويلاته . مخالفة لروح العصر الحاضر بكل مقتضى من مقتضياته .. ومن ثم فهي لا تحمل عنصرا واحدا من عناصر البقاء ، يملي لها في الاجل ، ويمنحها فرصة البقاء .

في مفارق الطريق

هذه الاوضاع الاجتماعية القائمة غير قابلة للبقاء والاستمرار. هذا ما يحسه لا الذين يعارضونها وحدهم ، بل الذين يحاولون أن يقيموا لها الاسناد ، فانه ينبغي ان نشهد انهم ليسوا من الغباء بحيث يطمئنون الى ان مثل هذه الاوضاع يمكن ان تمتد بذاتها كثيرا او قليلا . لذلك هم يحاولون ان يقيموا لها الاسناد الزائفة لتعيش فترة طويلة او قصيرة .. هم يضيفون بين آن وآخر مواد جديدة الى قانون العقوبات تشمل ما لم تكن تشمله المواد السابقة من الاحوال ، او تضيف عقوبات لم تكن المواد السابقة تتضمنها . رجاء ارهاب المكافحين في سبيل العدالة الاجتماعية ، باية طريق ، وباي عنوان !

وهم يزيدون الاموال المرصودة للدعاية لهذه الاوضاع ، فتتحرك اقلام وتنشأ صحف ، وتتم في الظلام مؤامرات على التشكيلات النقابية وعلى الهيئات المكافحة ، قوامها المال ، وقوامها الترهيب والترغيب ، وفي يدها سيف المعز وذهبه : هذا لمن شاء ، وذلك لمن أراد !

وهم يتحدثون بين الحين والحين عن .. العدالة الاجتماعية ! اي والله عن العدالة الاجتماعية . وعن الطبقات المحرومة ، وعن ضرورة تحسين الاحوال . وكثير هم « الباشوات » الذين يطلقون للعدالة الاجتماعية البخور في هذه الايام ، اذ كان ذلك الطف مخدر للجماهير الكادحة ، يهدىء أعصابها ، ويسيل لعابها ، ويمنيها بالعدل الاجتماعي الذي لا تكافح من أجله وحدها . بل يكافح له معها «الباشوات» العظام ! فما عليها الا ان تستريح ، وتستبشر ، وتنام !

ولكن شيئا من ذلك كله لن يجدي فتيلا ، فالطبيعة والحياة والدين والحضارة الانسانية والاقتصاد والعقل ضدها جميعا . انما هي تعلات فارغة ، ذاهبة مع الريح في الهواء .

***

ونحن اليوم في مفارق الطريق . كلنا قد انتهينا الى ان الاوضاع القائمة لن تدوم . كلنا متفقون على هذه الحقيقة ، حتى اولئك الذين يقيمون من حولها الاسناد . انما تختلف الآراء حول الوضع الجديد الذي ينبغي ان يخلف هذه الاوضاع . والتفكير في هذا واجب ، فلا بد من وضع اجتماعي معين يحل محل هذا الوضع الذي يدق بيده او بأيدي المتشبثين به ، كل يوم مسمارا في نعشه ، والمسمار الاخير قريب قريب !

منا فريق يهتف بالاشتراكية . ومنا فريق يحلم بالشيوعية ، ومنا فريق يدعو الى الاسلام .

والاوضاع القائمة تجاهد الجميع، لان واحدا من هذه الحلول كلها لن يدعها في سلام !

هي طبعا تكافح الشيوعية بادىء ذي بدء جهارا نهارا بلا تقية ولا مداراة . وهي تكافح الاسلام فتداوره تارة ، وتنكل به تارة ، حسبما ترى من القوة التي تسنده ان كانت خطرا حقيقيا واقعا ، او كانت خطبا ومواعظ يطفئها الكلام . وهي تدع اسم الاشتراكية يمر ، حين لا تحسها خطرا حقيقيا قائما ، فاما حين تحسها قوة حقيقية فهي تكافحها كفاح الشيوعية وكفاح الاسلام .

لن تسلم الاوضاع الاجتماعية المستغلة لواحد من الثلاثة اذن ، ولا بد من كفاح منظم رتيب ، طويل الاجل . كفاح قلم . وكفاح بحث . وكفاح تنظيم . وكفاح تكتل الى جانب فكرة من هذه الفكر ، لانقاذ هذا الوطن المشرف على الانهيار .

***

هذا في الداخل . فاما في الخارج ، فهنالك كتلتان ضخمتان : كتلة الشيوعية في الشرق ، وكتلة الراسمالية في الغرب . وكلتاهما تبث دعاية ماكرة في جنبات الارض ، قوامها : ان ليس في العالم الا كتلتان ووجهتان : الشيوعية والراسمالية . وان ليس للامم الباقية مفر من أن تكون الى جانب هذه الكتلة او تلك ، فليس هنالك من سبيل الا هذا او ذاك !

ان الشيوعية تخاطب الشعوب المستغلة ، والجماهير الكادحة، فمن مصلحتها ان تدع هذه الجماهير تفهم انها ان لا تكن في صف الشيوعية ، فستكون في صف الراسمالية ! والجماهير حين تخير على هذا النحو ، خيرتها واضحة ، وطريقها مرسومة ، وقد ذاقت من الراسمالية الويل ، فالشيوعية وحدها اذن طريق الخلاص !

والراسمالية — او الديمقراطية — تخاطب الهيئات الحاكمة ، والطبقات المستغلة ، فمن مصلحتها ان تدع هذا الفريق يفهم انه ان لا يكن في صف الراسمالية ، فسيكون في صف الشيوعية ! والاسياد المستغلون حين يخيرون على هذا النحو ، خيرتهم معروفة ، وطريقهم مرسومة . وهم يفرقون من الشيوعية فرق الهمجي من الجن والغيلان !

ولما كانت الكتلة الغربية كالكتلة الشرقية ، انما تتنازعان رقعة العالم ، وتديران المعركة لحسابها الخاص ، على حساب الشعوب والامم التي تدور في فلك هذه او تلك ، فان دعايتهما على هذا النحو مفهومة ، وهما منطقيتان مع انفسهما ومع أهدافهما بلا جدال !

فاما نحن فما شاننا في هذا الصراع ؟

نحن جربنا في فلسطين قريبا انه لا الكتلة الشرقية ولا الكتلة الغربية تقيم وزنا للمبادىء التي تنادي بها ، او تقيم وزنا لنا نحن انفسنا ، حين يجد الجد ، وتتكشف النيات ، وتنطق المصالح والشهوات .

فنحن اذن لا راحم لنا عند هؤلاء ولا عند هؤلاء . ونحن اذن غرباء مستضعفون في صف هؤلاء او في صف هؤلاء . ونحن اذن الاذناب في القافلة سلكنا هذا الطريق أو ذاك .

وانا افهم جيدا ان نهون عند الآخرين ، فاما ان نهون على انفسنا فذلك أمر فهمه علي عسير ، لانه لا يخالف طبيعة الرجل الكريم فحسب ، بل يخالف طبيعة الانسان !

انني اعرف ان في هذه البشرية من يستطعمون الذل والمهانة ، ويستلذون الاذى في الجسم والكرامة . ذلك انهم مرضى يعرفهم علم النفس ، ويضعهم في قوائم المرضى تحت عنوان خاص .

ولكنني لا اعرف ان امة كاملة يمكن ان تكون مصابة بهذا المرض النفسي المعروف ، ولا ان جيلا كاملا يستلذ الاذى والمهانة بحال من الاحوال .

ترى احالتنا الاوضاع الاجتماعية القائمة امة من العبيد ، لا للسادة فيها فحسب ، ولكن لاية سيادة تلوح لها من جانب الافق الغربي او الشرقي على بعد ألوف الاميال !

انني اعيذ الامة الاسلامية ان يكتب عليها كلها هذا الهوان . فلقد وقف واحد منها في وسط « الكونجرس » الامريكي يفهم الامريكان ان الغرور وحده هو الذي يصور لهم وللروس ، ان ليس في العالم كله الا كتلتان : كتلة الشيوعية وكتلة الديمقراطية .. ان هنالك كتلة اخرى ثالثة ... كتلة الاسلام .

ارتفع هذا الصوت في قلب امريكا ، منبعثا من فم المرحوم « السيد لياقت علي خان » رئيس وزراء الباكستان ، بل من قلبه وضميره ، بل من كرامته وكرامة شعبه ، وكرامة الشرق المسلم ، الذي يربأ بنفسه عن المهانة ، ويرى لنفسه وجودا وكيانا ، ويأبى ان يقف في ذيل القافلة وقفة الذليل الخانع الجبان ، تلك الوقفة التي يدعونا اليها مع الاسف شباب من هذا الجيل بلا تحرج ولا اباء .

في هذا العالم رقعة فسيحة متصلة الحدود ، من شواطىء الاطلنطي الى جوانب الباسيفيكي ، تضم اكثر من ثلثمائة مليون من الناس ، يشتركون في عقيدة واحدة ، ونظام معيشي واحد ، وتقاليد متقاربة ، ولغة ان لا تكن واحدة فهي في طريقها لان تصبح لغة التفاهم للجميع . ودع عنك عشرات الملايين المتفرقة في اوروبا وآسيا وافريقية ، ممن يدينون بهذه العقيدة ، وبذلك النظام الذي تحمله العقيدة .

فاي عقل يمكن ان يغفل هذه الكتلة الضخمة المتصلة الحدود من الحساب ؟ ان الكتلتين الشرقية والغربية لا تغفلان هذه الكتلة الثالثة من حسابهما اغفالا حقيقيا ، كما يبدو في دعايتهما الماهرة الماكرة ، انما هما تتنازعانها تنازع الاشيـاء والمتـاع ! ولكل من الكتلتين عذرها ، فما عذرنا نحن ان نرضى بأن نكون كالاشيـاء والمتاع ؟!

عذرنا ان الاوضاع الاجتماعية القائمة التي نعانيها في الداخل، لا تدع لنا ان نفكر في روية ، ولا ان نحس في كرامة ، ولا ان ندرك ما وراء الدعايات من اهداف !

هذا صحيح ! ولكن هذا العذر يصلح لفرد او افراد . امـا الشعوب والامم فما هي بمعذورة ان تدع نفسها كالشيء التـافه او سقط المتاع ، متى كان لها مخرج يحفظ عليها كرامتها ، ويرد اليها اعتبارها ، ولا يدعها في ذيل القافلة ، وفي مركز التابع الذي لا يؤبه لرايه ولا يستشار !

ولو لم يكن لها هذا المخرج لاوجبت عليها الكرامة الانسانية ، والاعتبارات القومية ، ان تبحث عن مخرج ، وان تخلقه خلقـا ، وتنشئه انشاء . فكيف وهذا المخرج في يدها ، وفي متناولها ، وفي رصيدها الحاضر الذي لا يعز على التناول ؟

الا تكن ذلة العبيد ، فانه نوع من التفكير عجيب !

***

واعتبار آخر ...

لقد جربناـب حتى شعبنـا ـ تلك القوالب الجـاهزة التي استجديناها كالشحاذين من هنا ومن هنا ومن هناك . جربناها في كل جانب من جوانب حياتنا الفكرية والاجتماعية والتشريعية، حتى انتهينا بها الى « كرنفال » مضحك من المظاهر والازياء . ازياء الفكر وازياء الجسم سواء !

ولناخذ مثالا ذلك التشريع الذي استوردناه اولا من فرنسا ، ثم ما نزال نستورده من شتى بقاع الارض ، كلما احتجنا ان نشرع لهذه الحياة .

ان هناك تصادما دائما بين روح التشريـع الذي نستمـده وروح الشعب الذي نسن له هذا التشريـع . ان الشعب يسم بالبطولة كل خارج على القـانون ، ويبذل له التشجيـع والعون والمساعدة ، بقدر ما ينفر من السلطات القائمة على القانون، ويضن عليها بثقته ، او مساعدته على جمع الادلة والقرائن والشهادات.

لماذا ؟.. يقولون : ان الشعب جاهل ! كلا . فليس هذا هو السبب الاصيل ، فالمتعلمون كذلك لا يستجيبون لدعوة القانون. ان السبب الحقيقي كـامن في التنـافر بين روح الشعب وروح التشريع المستعار ، لان هذا التشريـع لم يستمد مـن ظروفـه الاجتماعية ، وملابسـاته التاريخية ، ومشاعره وعقائده ، وتقاليده وعاداته . انما استمد من وسط اجنبي عن روحه جميعا ، وسط له تاريخه الخاص ، وله ديانته الخاصة ، وله حاجاته الاجتماعية وظروفه الخاصة . والقانون ما لم يكن تلبيـة لروح الشعـوب وحاجاتها ، فلن تخلص له ولن تنقاد !

نحن لا ندعو الى عزلة فكرية او اجتماعية عن ركب الانسـانية المندفع . فنحن شركاء في القافلة ، شركاء في الحضارة البشرية . بل نحن ادينا لهذه الحضارة الكثير، وقمنا فيها بدور ايجابي ضخم،

قد لا نفطن اليه اليوم ولا نحترمه ، الا اذا تخلصت نفوسنا من مشاعر العبيد !

ولكننا ننعى هذا التسول الدائم الذي نزاوله ، وهذا الاستجداء المزري الذي نحن عاكفون عليه ، وهذه الاستعارة التي لا نردها ، ولا نؤدي ما يقابلها . وما دمنا نستجدي دائما ولا نعطي شيئا ، فنحن على مائدة الانسانية في موضع الشحاذ المتسول ، لا في موضع الواهب الكريم .

وقد يتسول المعدم ويستجدي المسكين . فاما ان يكون لك رصيد ضخم ثم تلبس اسمال الشحاذة ، وتمد يد الاستجداء باسم المشاركة في الحضارة ، فتلك مشاركة لا يعرفها الا الشحاذون وحدهم ، ولا يطمئن اليها الا العبيد !

هنالك معنيان للحضارة : فاما الاول فهو أن يكون لنا نصيبنا المتميز البارز في بناء هذه الحضارة ، وزيننا الذاتي المستمد في اصوله مما عندنا ، المنتفع من تفريعاته وتطبيقاته بكل ما افادته الانسانية من التجارب . واما الثاني فهو ان ناخذ القوالب الجاهزة ، والسمات الظاهرة ، وان ننقل نقلا كل ما نراه بلا روية ولا تفكير ولا تعقيب .

المعنى الاول يفهمه الآدميون ، والمعنى الثاني تفهمه القرود، واخشى ما اخشاه أن لا نكون قد فهمنا الا هذا المعنى الاخير !

***

وبعد فان الجبهة الغربية المؤلفة من امريكا وانجلترا وفرنسا تستعبدنا وتستذلنا ، ولا مكان لنا فيها الا مكان الذيول والعبيد، وكل تفكير في الانضمام اليها انما ينشأ من المصلحة المشتركة بين الراسمالية المستغلة والاستعمار الذي يحميها ، وكل ستار آخر انما هو ستار خادع ، للتعمية على الجماهير ، التي أصبحت لحسن الحظ لا تنخدع بهذا الستار .

لقد منحنا ارضنا وسماءنا ، وأقواتنا وارزاقنا ، ومصالحنا وارواحنا ، الى هذه الجبهة مرتين في خلال ربع قرن ، ثم ابنا منها بصفعة كف او ركلة قدم في نهاية المطاف . فاما في هذه المرة الثالثة فاننا لن نؤوب بذلك المصير السليم الذي قد يحمده العبيد ، ويسجدون للسادة شكرا على السلامة والعافية . بل سنؤوب بالتدمير المطلق الشامل لحياتنا كلها الى عدة اجيال .

ان الدفاع المشترك في اية صورة من صوره . او الانضمام الى معسكر معين بأي وضع من اوضاعه ، معناه تعريض هذا البلد الاعزل للخراب والدمار . هذا البلد المكشوف الذي ما تزال حياته تتوقف على خزان اسوان ؛ وقنبلة واحدة تكفي لتحطيم هذا الخزان ! اي لتحطيم مصر كلها اجيالا بعد اجيال !

انها جريمة وطنية ان نربط انفسنا الى عجلة معينة في صراع الجبابرة القادم ، فوق انها جريمة في حق الكرامة والشرف والضمير . الكرامة التي داستها الديمقراطيات الغربية مرتين ، وما تزال تدوسها في تبجح ، لا يقيم لهذا الشعب وزنا ، لانه يرتكن الى المصلحة المشتركة بينه وبين عهود الاقطاع .

ان هذا العالم العربي الممزق في براثن الاستعمار الغربي ، ليستحق اللعنة والاحتقار ، اذا مد يده الذليلة ليسند الغرب الفاجر في باسائه مرة اخرى . والشرق لا يمد يده ، وانما يمطي ظهره للغرب ليضع اقدامه ، ويعبر الهاوية ، ثم يركل الحمار الذليل الذي امتطاه !

ان الغرب الراسمالي والاشتراكي سواء ، يناصبنا العداء كله كتلة واحدة . وفي فلسطين شاهد من ذلك العداء الناصب قريب . وهو في الوقت ذاته يسومنا الذل والخسف في تبجح ظاهر ، ولا يخفض من نبرة الاستعلاء الفاجر الا في ابان الهزيمة والانكسار .

ونحن لم ننس بعد استهانة جنود الحليفة في الحرب الاخيرة بارواح المصريين ، الذين كانت عرباتهم تدوسهم باستهانة كما تداس

الكلاب ، وتدوس كراماتهم واعراضهم كما تداس الرقيق والعبيد . وما تزال هذه الحوادث تجري في الشقة العريضة التي يحتلونها على ضفة القنال (١) .

نحن لا ننسى نظرات الازدراء التي كانت تطل من عيون شذاذ الآفاق الذين حشدتهم الحليفة في ارضنا ، وهم يتوجهون بها الى الجماهير في غدوهم ورواحهم، بل يتوجهون بها الى ضباط البوليس وعساكره في اية مرة حضر هؤلاء للتفرج على حادثة من حوادث المجندين . فما كان للبوليس المصري الا ان يتفرج ، والحلفاء يدوسون المصريين بسياراتهم ، او يركلونهم باقدامهم ، او يبتزون منهم النقود في الطرقات .

لقد شبعنا من منظر السكارى المعربدين من مجنديهم ، والمائعات المستهترات من مجنداتهم ، ومن تلك القذارات الآدمية التي جلبوها معهم ، او التي خلفوها لنا ، مئات والوفا من الاعراض المثلومة ، والكرامات المهدرة ، والعار الذي تانف منه الرجال ... والنساء !

لقد استكفينا جوعا لنطعم شذاذ الآفاق من جنود الحلفاء ، وعريا لتشتغل مصانعنا لكسوتهم ، بالتآمر مع رؤوس الاموال وممثليها في عالم الصناعة وفي كراسي الحكم سواء .

لسنا مستعدين مرة اخرى ان تخطف بناتنا من الطرقات والبيوت ليهدر عفافهن في المعسكرات والسيارات ، ولا ان تخطف اقواتنا وطعامنا من المزارع والاسواق ، لنصاب نحن بالسل والجوع ، ولا ان تخطف اموالنا وارصدتنا من البنوك ، لنواجه الازمات والكساد . ثم يقف بعد ذلك مستعمر متبجح مثل مستر

---

(١) جاء هذا الكلام في الطبعة الاولى قبل خمسة عشر عاما .

تشرشل ، ليمن علينا بنعمة الحماية ، ويطالبنا ، لا بالتنازل عن ديننا على بلاده ، بل بدفع تعويض عن تضحيات جنوده .. جنوده السكارى المعربدين الاوباش !

فاما فرنسا فصفحتها في تونس والجزائر ومراكش ، وفي مصر ذاتها اقذر من صفحة الانجليز .. ففرنسا التي وقفت في مؤتمر (مونتريه) حجر عثرة في طريق الغاء الامتيازات ، ولو ان الانجليز ـ لمصلحة خاصة ـ كانوا يريدون قصقصة جناحها في الشرق العربي شيئا فشيئا لظلت حجر عثرة في طريقنا حتى الآن . فاما فظائعها في تونس والجزائر ومراكش، فهي فضائح البربرية المتوحشة في القرون الوسطى ما تزال .

وفرنسا امة انتهت ، وهي في دور الانحلال الاخير ، على الرغم من كل دعاتها في الشرق العربي ، ولكنها ماضية في وحشية البرابرة وتعصب الصليبيين ، تقتل وتحرق ، وتعذب وتشوه ، وتسرق وتسلب ، وترتكب في المغرب العربي ما ارتكبه المغول والصليبيون من آثام .

ولقد كان عبيد فرنسا هنا في الشرق يردون علينا دائما حين نحدثهم عن « امهم الحنون » بانه لا يجوز الحكم على فرنسا بتصرفات السياسيين ، فالسياسة لا قلب لها ولا ضمير . فها هي ذي كبيرة صحفيات فرنسا « مدام تابوى » تصفع العبيد هنا بتصريحاتها العجيبة . ففي زيارتها الاخيرة لمصر تلقت مندوباحدى صحفنا غاضبة ، لا لشيء الا ان رئيس الحكومة المصرية رد على رسالة زعيم من زعماء المغرب ، يؤيد فيها حق الحرية . حتى لقد قالت لذلك المندوب : كنت قد أعددت مقالا عن بلادكم ولكني لن انشره . فماذا كسبتم من تدخلكم في شؤوننا بالشمال الافريقي ؟ !

وبلع العبيد في مصر هذه الصفعة ، وعادوا يسبحون بحمد فرنسا أمهم الحنون !

فأما امريكا : فالذين لم يعيشوا فيها ولم يروها، قد لا يذكرون

لها الا خيانتها لنا في قضيتنا بمجلس الامن ، وفي حرب فلسطين . ولكن الذين عاشوا فيها ، ورأوا كيف ولغت صحافتها ومحطات اذاعتها وشركات أفلامها في كرامتنا وفي سمعتنا ، وكيف نشرت ذلك بعداء واضح واحتقار مقصود ، او أحسوا ذلك العداء العنيف لكل ما هو اسلامي وشرقي بوجه عام، او عرفوا كيف ينظر الامريكان للملونين عامة ومدى ما يكنون لهم من احتقار . هؤلاء يعرفون ما هي امريكا ، ويعرفون كيف يجب ان يردوا لها هذا الجميل وذاك !

ولقد لقي الآلاي التركي الذي ذهب الى كورية جزاءه الحق من الامريكان ، وعرف نصيبه ونصيب اي جيش شرقي يذهب لمعاونة هؤلاء المتغطرسين على الشرقيين . لقد تركوه يحمي مؤخرة هزيمتهم ، فلما قام بدوره تركوه بلا حماية من الطيارات ، وبلا معونة من السيارات ، بل بدون ذخيرة ودون طعام !

وانه لمثل بسيط لما ينتظر جيوش العبيد في اي حلف مشترك. فالاتراك في نظر الامريكان هم ارقى الشرقيين لسبب تافه بسيط انهم بيض البشرة ! ومع ذلك فتلك معاملتهم لهم في الميدان .. معاملة السيد الخائن الجبان !

تلك قصة الكتلة الغربيــة معنا ــ بما فيها من راسمالية واشتراكية ــ فما هي قصة الجبهة الشرقية !

لقد كشفت لنا الشيوعية عن قيمة مبادئها التي تبشر بها يوم وقفت تسلح اسرائيل . واسرائيل هي الدولة الوحيدة التي تقوم على عنصر الدين وحده في الارض . وعنصر الدين هو أول ما تنكر الشيوعية ان تقوم عليه الدول ، وآخر ما تفكر في احتضانه والدفاع عنه . ولكن الشيوعية لا تقيم وزنا الا لمصلحتها الخاصة ، وتحت اقدامها المبادىء التي تزخر بها الدعايات .

والشيوعية قد تمنحنا الخبز ، وتعفي نفوسنا من مرارة النظر الى الثراء الفاحش الفاجر الـذي تنفر من رؤيته البشعة فطرة الانسان ! ولكنها تمنحنا الخبز لتسلبنا مقدساتنا كلها في الحياة ،

لا مقدساتنا الدينية ، ولكن مقدساتنا الانسانية جميعا ، لتحبس نفوسنا في اطار الخبز والكساء .

وقد يبدو الحديث عن المقدسات الانسانية ترفا في مصر ، او حديثا عن أوهام وخيالات لا وجود لها في حقيقة الواقع الاجتماعي .

وهذا صحيح .. فما يمكن ان تعيش هذه المقدسات في اوضاع اجتماعية كأوضاعنا القائمة . ان الحطام الآدمي الذي يعد بالملايين في مصر ، لا يتسنى له الشعور بتلك المقدسات ، لانه مشغول بشعور الجوع والحرمان .

ولكن ما القول : اذا كان هناك نظام آخر يمنحنا الخبز الذي تمنحه لنا الشيوعية ، ويعفينا من بشاعة الثراء الفاحش وفوارق الطبقات ، ويحقق لنا مجتمعا متوازنا لا حرمان فيه ولا افتراء .. ثم يمنحنا في الوقت ذاته غذاء الروح ، وحرية الفكر ، والشعور الانساني الارقى بالانسان ، والحياة ؟

ما القول اذا كان هنالك نظام ، لا يدعنا ذيلا في القافلة : قافلة الشيوعية او قافلة الراسمالية .. انما يمنحنا مع العدالة الاجتماعية المطلقة في الداخل ، كرامة دولية عزيزة في الخارج ، ويرد الينا اعتبارنا في المجتمع الدولي ، وقد يعفينا من ويلات الحرب ، ويعفي الانسانية معنا من هذا البلاء ؟

ما القول اذا كان هنالك نظام يحل لنا مشكلاتنا الداخلية ، وفي الوقت ذاته لا يدعنا نقف ابدا من المائدة الانسانية وقفة المستجدي الذليل ، بل وقفة المساهم في هذه المائدة ، المعطي ما عنده ، وما عنده ليس بالقليل ؟

انني لاعجب كيف يمكن الانسان ان ينأى بنفسه عن موقف الكرامة الى موقف الذلة ، وعن دور المعطي الى دور المستجدي ، وعن مركز القيادة الى موقف التبعية . وهو قادر على الاختيار ، لو قاوم في ضميره شعور الاضطرار !

ان لدينـــا ما نعطيه ، ولسنا من الافــلاس بحيث يتصور الكثيرون ، أو بحيث تصّورنا لانفسنا كتلة الغرب وكتلـــة الشرق سواء . انما تصوراتنا هكذا لغاية في نفس يعقوب ! ليحل التخاذل في نفوسنا محل الثقة ، والياس محل التطلع ، ولنسقط فرائس ذليلة مستغفلة في هذا الفخ او ذاك .

ان لدينا ما نعطيه ، ولكننا في حاجة لان نؤمن بانفسنا ، ففي هذا الايمان حياة ، وفي هذا الايمان نجاة .

في الإسلام خلاص

اذا اتضح ان الاسلام يملك او يحل لنا مشكلاتنا الاساسية ، ويمنحنا عدالة اجتماعية شاملة ، ويردنا الى عدل في الحكم ، وعدل في المال ، وعدل في الفرص ، وعدل في الجزاء .. فانه يكون بلا شك اقدر على العمل في بلادنا من كل مذهب آخر ، نحاول استعارته ، عن طريق التقليد ، او على طريقة المشاركة في الحضارة الانسانية بالاستجداء !

اجل ـ اذا اتضح هذا كله ـ فالاسلام اقدر على العمل في بيئتنا . اقدر من الشيوعية بكل تاكيد (وذلك على فرض تكافؤهما في القيمة الانسانية ، وتكافؤ اثرهما في العدالة الاجتماعية) فالاسلام معنا هنا في الداخل ، ولن نحتاج الى استجلابه من وراء الحدود ، كما نستجلب القوالب الجاهزة ، فتجيء فضفاضة او خانقة ، لانها لم تصنع على اعيننا ولم تفصل على قدنا ، ولم تنبع من آلامنا وآمالنا .

والاسلام صاحب لنا صديق ، صاحبناه الفا وثلثمائة عام على الخير والشر ، وعلى النعماء والبأساء . صاحبناه كارها وراضيا ، وبررناه او عققناه . ولكنه بعد ذلك كله صديق ، له في الجوانح هزة ، وفي المشاعر ذكرى ، وفي الضمائر اصداء ، وليس بالغريب على ارواحنا ومشاعرنا وعاداتنا وتقاليدنا غربة الشيوعية ، التي نحمد منها اشياء ونكره منها اشياء ، ونألف منها اتجاها ، وننكر عليها اتجاها ، وتتوزع مشاعرنا ازاءها على اية حال توزعا لا يضمن معه توحد الجبهة في طلب عدالة اجتماعية قوية كما نضمن توحدها اذا نحن هتفنا الى العدالة باسم الاسلام .

والاسلام حجة قوية لا تملك لها الراسمالية المستغلة دفعا كما تجد للشيوعية . والمخلصون للوطن والمجتمع في الدعوة الى العدالة الاجتماعية ، الذين يريدون العدالة الاجتماعية لذاتها ويجعلون منها هدفهم الحقيقي ، ولا يتخذونها مجرد ستار لتهييج الجماهير ، ابتغاء لنشر مذهب معين ، هو الغاية الاولى ، والعدالة وسيلة ! . . هؤلاء لا يملكون ان يغفلوا سلاحا قويا كسلاح العقيدة الاسلامية . سلاحا حاضرا في الايدي ، مذخورا في النفوس ، يدعى باسمه فيستجاب ، وتستجاش العزائم باسمه فتذكو وتهيج . . .

ان الذين يريدون تنحية الاسلام عن معركة العدالة الاجتماعية، ليخوضوها تحت راية الشيوعية ، انما يخونون انفسهم ان كانوا مخلصين في دعوى العدالة ، او يخونون قضية الجماهير ، جهلا بقيمة القوة الكبرى التي يزوّدهم الاسلام بها ، او عداوة مريبة لهذه القوة العظيمة ، او احتقارا لانفسهم وكفرا بقيمتهم ، ورضاء كرضاء العبيد بفتات الموائد ووقفة الاذناب . . .

انني أفهم جيدا ان ينصب المستغلون والطغاة للاسلام ، لينحوه عن هذه المعركة ، اما باستغلال المحترفين لاصدار الفتاوى المكذوبة على الدين ، واما باضطهاد الدعاة الحقيقيين لعدالة الاسلام ، واتهامهم بشتى التهم ، للتخلص من ذلك السيف الحاد المصلت على رقاب البغي والاستغلال . فأما أن ينصب للاسلام دعاة العدالة الاجتماعية ، فذلك أمر عندي غير مفهوم . وان وراءه لخبيئا يجب ان يفطن اليه الابرياء ، الذين يريدون العدالة لذاتها ، ويكافحون للجماهير وحدها ، ويتجردون لهذه الغاية النبيلة بلا رياء ولا التواء .

***

ولكن ما لنا نعجل قبل ان نعرض مشكلاتنا الاساسية على الاسلام لنرى ان كانت لها عنده حلول ؟

ما هي مشكلاتنا الاجتماعية التي نعانيها في اجتماعنا الحاضر، وفي وضعنا الراهن ؟ ... انها :

١ ـ سوء توزيع الملكيات والثروات .

٢ ـ مشكلة العمل والاجور .

٣ ـ عدم تكافؤ الفرص .

٤ ـ فساد جهاز العمل وضعف الانتاج .

وهنالك مشكلات فرعية اخرى ، تعد ثمارا ونتائج لهذه المشكلات الاساسية الكبرى ، او مضاعفات مرضية من مضاعفاتها . فلنتناول هذه المشكلات واحدة واحدة ، نعرضها على الاسلام لننظر كيف يعالجها في ثقة وهدوء وسلام .

سوء توزيع الملكيات والثروات

لم يعد احد يجادل في ان توزيع الملكيات الزراعية في المجتمع المصري توزيع سيىء مختل ، يجب العمل على تعديله فورا . وليس الاختلاف اليوم على صحة هذه الحقيقة ، انما الاختلاف على الطريقة التي يعالج بها وضع لا يقبل البقاء .

وحين يصل الامر الى ان يملك الف ومئتان واربعة وتسعون فردا ، مليونين من الافدنة الصالحة للزراعة في بلد يصل تعداده الى عشرين مليونا من الافدنة فانه لا يبقى مجال للاختلاف على سوء التوزيع ، واختلاله ، وفساده .

والامر في الثروات المنقولة اشد سوءا ، فان من لا يزيدون على الفين يملكون اكثر من ثلث الثروة الممثلة في البنوك والشركات !

تختلف الآراء اذن في طريقة العلاج ، لا في حقيقة الداء . فرجل مثل محمد بك خطاب ، يفكر تفكيرا راسماليا واعيا ، ويحس ان اوضاع الملكيات الزراعية يجب ان تتغير ، اتقاء لما تثيره من

عواصف مرتقبة في الافق القريب .. يقدم مشروع تحديد الملكيات الزراعية بحيث لا تزيد على حد معين ، وبحيث تشتري الدولة ما يزيد ، وتكوّن به ملكيات صغيرة .

هو تفكير راسمالي بحت ، لانه لا يزيد على ان يحول الثروة العقارية المتضخمة الى ثروة منقولة متضخمة كذلك ، وكل ما يتقيه هو المظهر الفاحش البارز للاقطاع . ولكن الراسمالية الغبية في مصر لا تدرك مرماه ، فتثور عليه ، وتتهمه بالشيوعية ، وتطارده في البرلمان !

ام لعلنا نحن الاغبياء ، والراسمالية هي الذكية الواعية ! نعم ! فالاقطاعيون يعلمون ان رقيق الارض حطام آدمي ، لا خوف منه ولا خطر . حطام قد احاله الجوع والمرض مخلوقات ضعيفة هزيلة لا تحس لنفسها وجودا ولا كرامة ، ولا تفكر في عدل ولا نصَفة . فمن الخير ان تبقى اموالهم مستغلة في الارض مع هذا الحطام الذي لا يؤذي ، من ان يضطروا لاستخدامها في الصناعة ، حيث يتكتل العمال ، وينمو بينهم الوعي ، ويطالبون بحقوق الانسان في يوم من الايام !

فاما الدولة فقد حاولت هذه السنوات الاخيرة ان تصنع شيئا ــ في حدود العقلية الراسمالية بالطبع وفي حدود رعاية مصالح من تمثلهم من الملاك وأصحاب رؤوس الاموال ــ سنت ضريبة التركات ، وضريبة الدخل العام ، واخذت بمبدأ الضريبة التصاعدية ، واعفت صغار الملاك من الضريبة ... وهي خطوات هزيلة لا يبدو لها اثر ، لان الاوضاع القائمة قد بلغت من الفحش والسوء مبلغا لا تعالجه هذه اللمسات الناعمة بقفازات الحرير اللطيفة !

لذلك تدعو الشيوعية دعوتها : ان لا علاج ولا خلاص الا من ذلك الطريق المرسوم !

فما راي الاسلام يا ترى الى جانب تلك الآراء ؟ وما خطته

وطريقته ؟

ان الاسلام يقرّ « مبدا الملكية الفردية » . هذا ما لا شك فيه ، ويخالف النظرية الاساسية للشيوعية في هذا الاتجاه .

ولكن اية ملكية فردية هي التي يقرّها الاسلام ، ويكفل لها الضمانات ؟

انها الملكية التي تنشا من اصل صحيح للتملك ، بوسائل صحيحة يعترف بها الاسلام .

والاسلام يعد العمل هو السبب الوحيد للملكية والكسب . العمل بكل انواعه . عمل الجسم وعمل الفكر سواء . وعلى هذا الاساس يحرم الربا ، لان الزيادة التي ترد مع المال المقترض لم تنتج من عمل ، انما نتجت عن راس المال . وراس المال في ذاته ليس سببا من اسباب الكسب الصحيحة ، ولا جزاء عليه ، لان الجزاء لا يترتب الا على العمل البشري وحده ، ولا جدال في ان هذا هو المبدأ الاساسي للتملك وللكسب في الاسلام .

كذلك يحدد الاسلام لتنمية المال طرقا معينة ، ولا يقرّ اي نموّ يخرج عن حدود الوسائل المشروعة فيهذه الوسائل، لا يدخل فيها الربا ــ كما تقدم ــ ولا المقامرة ، ولا الغش ، ولا الاحتكار ، ولا الربح الفاحش المخالف لكل سماحة ، ولا المستقطع من اجور العمال التي تبلغ نصف الربح ، كما يرى بعض فقهاء الاسلام . وبطبيعة الحال لا يعترف بالسرقة والنهب والسلب والاكراه ، وسائل للتملك ، او وسائل لتنمية المال .

وكل ملكية لم تقم على الاسس الصحيحة التي يعترف بها الاسلام او قامت عليها ، ولكن نموها لم يتم بالوسائل التي يقرها ، فهي ملكية زائفة لا يقرها الاسلام ، ولا يعترف بها ، ولا يوفر لها الضمانات (١) .

---

(١) يراجع موضوع الملكية الفردية بتوسع في كتاب « العدالة الاجتماعية في الاسلام » فصل « سياسة المال » .

هذا هو المبدا الاول عن الملكية في الاسلام . ومن طبيعته ان يمنع التضخم الفاحش في الثروات منذ البداية . فالمال الذي ينشأ من الجهد الذاتي بالعمل ، والذي لا يربح ربحا فاحشا ، والذي تبلغ اجور العمال المنشئين له نصف الربح ، ولا يتضاعف بالربا ، او بالغش ، ولا يقوم على الاحتكار او الابتزاز .. لا يصل بطبيعته الى حد التضخم الذي يؤذي المجتمع ، ويخلق فوارق الطبقات .

وينبغي ان نضيف الى هذه العوامل الطبيعية عامل الضريبة الدائمة : ضريبة الزكاة .. هذه الفريضة التي تأخذ بنظام ثابت ما يعادل ٢،٥ ٪ الى ٥ ٪ من اصل الثروة كل عام .

وهنا كلمة يجب ان تقال عن هـذه الفريضة التي يشوهها المغرضون والمتحايلون ، فيصورونها بصورة الاحسان المذل لكرامة الانسان !

ان الدولة هي التي تجمع هذه الضريبة كما تحصل ايـة ضريبة ، وان الدولة هي التي تتولى انفاقها بنظام معين ، قابل للتطور حسب حاجات المجتمع واوضاعه . فاين هي الذلة في نظام كهذا النظام ؟ ان المغرضين والمتحايلين يحاولون دائما ان يرسموا صورة واحدة مزورة لعملية الزكاة : غني يتبرع ويتصدق ، وفقير ياخذ ويشكر ! ويد عليا معطية تحتها يد سفلى آخذة ، وجها لوجه ، مباشرة بين فرد وفرد !

من اين جاؤوا بهذه الصورة الشائهة المزورة ؟ لست أدري !

ائذا فرضت الدولة اليوم ضريبة للتعليم ، جعلت حصيلتها خاصة بالاغراض التعليمية البحتة ، من بناء للدور ، واداء للاجور ، وانفاق على ادوات الطلاب وكتبهم وغذائهم كذلك .. قيل : ان هذا نظام للتسول والشحاذة ، يهين كرامة المعلمين والطلاب ، لان هذه الاموال ماخوذة من اموال الاثرياء ، منفقة في شؤون الفقراء ؟ !

ائذا سنت الدولة قانونا يجبي ٢،٥ ٪ من كل ثروة كثرت أم

قلت لتكوين الجيش وتسليحه ، وجعلت هذه الضريبة وقفا على هذا الباب من ابواب النفقات العامة .. قيل : ان الجيش يتسول ، وان كرامته تستذل ، لان الدولة اخذت نفقاته من اموال الاثرياء . والثري والفقير في ادائها سواء !

ان الزكاة ضريبة كهذه الضرائب ، تجبيها الدولة ، ثم تنفقها في وجوه معينة تجبيها "كلاً" ثم تنفقها اجزاء .. وليست احسانا فرديا يخرج بعينه من يد ليعطى بعينه الى يد . واذا كان بعض الناس اليوم يخرجون زكاة أموالهم ، فيوزعونها بأيديهم ، فذلك ليس النظام الذي فرضه الاسلام . انما يصنع هذا البعض ذلك ، ويسلك هذا الطريق المباشر ، لان الدولة لا تجبي هذه الضريبة بيدها ، لتنفقها هي بمعرفتها في تلك الوجوه القابلة للتصرف بحسب تغير الاحوال .

ولكن الغفلة والاستغفال يبلغان في مصر ، ان يتحدث بعض الناس عن الزكاة على انها احسان فردي يذل النفوس ، ويعوّدها الاستجداء ! .

والجرأة على الحقائق السافرة الاولية الى درجة التبجح ، لا تنشأ الا من غفلة المستمعين او القراء الى حد البلاهة . وكلاهما يتوافر في البيئة المصرية والحمد لله ! بل يتوافر في بيئة من يسمونهم « المثقفين » الذين يستمعون لكل طاعن في نظم الاسلام بترحيب وبشاشة ، لكي يثبتوا انهم مثقفون حقا ! ألسنا في عصر الاقزام وجيل الاقزام ؟ !

***

على اية حال لنمض في طريقنا لبيان المبادىء الاساسية في الاسلام عن مشكلة سوء توزيع الملكيات والثروات .

لقد راينا ان الاسلام لا يعترف بملكية لم تقم على اساس صحيح للتملك ، او لم تنم بوسائل النمو التي يعترف بها كذلك ،

ثم راينا انه يأخذ بنظام ثابت اثنين ونصفا في المائة من راس المال ليخصصه لضمانات اجتماعية معينة لبعض الطوائف المحتاجة الى تلك الضمانات ، ليؤديها لهم دفعة واحدة يجعلون منهـا راس مال لعمل ، او دفعات على هيئة مرتبات شهرية في حالة العجز عن العمل ، او باية صورة من الصور التي يقتضيها النظام العام .

ولكن هذا ليس كل حقوق الاسلام في المال .

ان هذا انما يجري حين يكون المجتمع متوازنا لا اضطراب فيه ولا اختلال ، وعندما لا تكون هناك حاجات استثنائية للمجتمع ، لمواجهة الطوارىء الداخلية او الخارجية . فاما حين تتغير الاحوال وتبرز الحاجات ، فحق المجتمع مطلق في المال ، وحق الملكية الفردية لا يقف في وجه هذا الحق العام .

والاسلام يعطي هذه السلطات للدولة ــ ممثلة المجتمع ــ لا لمواجهة الحاجات العاجلة فحسب ، بل لدفع الاضرار المتوقعة .

وحماية المجتمع من الاعتداء الخارجي ، كحمايته من التخلخل الداخلي سواء في منح هذا الحق للدولة ، لتتصرف في الملكيـات الفردية بلا حدود ولا قيود، الا حدود الحاجات الاجتماعية والصالح العـام .

في يد الدولة ان تفرض اولا ضرائب خاصة ــ غير الضرائب العامة ــ كما تشاء . فتخصص ضريبة للجيش ، وضريبة للتعليم ، وضريبة للمستشفيات ، وضريبة للضمان الاجتماعي ... وضريبة لكل وجـه طارىء من اوجه الانفـاق ، لم يحسب حسابـه في المصروفات العامة ، او تعجز الميزانية العادية عن الانفاق عليه عند الاقتضـاء .

وفي يد الدولة ان تنزع من الملكيات ، وان تاخذ من الثروات ــ بنسب معينة ــ كل ما تجده ضروريا لتعديل اوضاع المجتمع ، او لمواجهة نفقات اضافية ضرورية لحماية المجتمع من الآفات :

آفات الجهل ، وآفات المرض ، وآفات الحرمان ، وآفات الترف ، وآفات الاحقاد بين الافراد والجماعات ، وسائر ما تتعرض له المجتمعات من آفات .

بل في يد الدولة ان تنزع الملكيات والثروات جميعا ، وتعيد توزيعها على أساس جديد ـ ولو كانت هذه الملكيات قد قامت على الاسس التي يعترف بها الاسلام ، ونمت بالوسائل التي يبررها ـ لان دفع الضرر عن المجتمع كله ، او اتقاء الاضرار المتوقعة لهذا المجتمع اولى بالرعاية من حقوق الافراد ، فنظرية الاسلام في التكافل الاجتماعي لا تجعل هنالك تعارضا بين حقوق الفرد وحقوق المجتمع . وكل ضرر يصيب المجتمع يعده الاسلام ضررا يقع على كل افراده ، ويحتم على الدولة ان تقي هؤلاء الافراد من انفسهم عند الاقتضاء !

ويبدو جليا مما تقدم ان التصرفات التي لا تبلغ هذا المدى مستطاعة بطبيعة الحال . فللدولة ان تبقي على الملاك اراضيهم ، ثم تعطيهم قدرا منها يزرعونه في حدود طاقتهم ، وتمنح حق الارتفاق على سائرها لمن تشاء من الافراد المحتاجين القادرين ، يستغلونه لحسابهم بلا اجر ولا كراء .

او ان تتدخل في ايجارات الارض ، فتحدد لها سعرا معينا لا تتعداه ، او نسبة من المحصول لا تجور على المستاجر ، او ان تتصرف في هذه الحدود حسبما تقتضيه الظروف ، بلا قيد الا ضمان العدل واجتناب الجور ، وهيئة قضائية كمجلس الدولة ، يمكن ان يوكل اليها هذا الضمان .

وهكذا نجد ان مشكلة « الملكية الفردية » لا تقوم الا في اذهان الذين لا يعرفون الاسلام ، او الذين يعرفونه ثم يكتمون ما انزل الله ، ويهتفون بضمانة الملكية الفردية على حد : « ولا تقربوا الصلاة ... » !

ان الملكية الفردية محترمة في الاسلام بقيودها تلك واحتمالاتها

هذه ، لان هذا النظام يلبي ميول الافراد الطبيعية في التملك ، ويحثهم على بذل اقصى الجهد في الانتاج ، ثم يدع خيرات ذلك كله للمجتمع ، وفي خدمة المجتمع عند الاقتضاء .

وهو نظام اعدل من نظام الشيوعية وامهر واشمل .

اعدل ، لانه لا يمس الملكية الفردية الا عند الاقتضاء .

وامهر ، لانه يضمن بذل اقصى الطاقة من الافراد في الانتاج .

واشمل ، لانه يعد الفرد للمجتمع ، ويعد المجتمع للافراد .

مشكلة العمل والاجور

اذا كان العمل هو وسيلة التملك ووسيلة تنمية الثروة في اعتبار الاسلام ، فهو اذن قيمة اساسية من القيم الاجتماعية والاقتصادية .

والاسلام يحيط العمل بقداسة ، ويمنح اليد العاملة توقيرا ، حتى ليقول نبي الاسلام الكريم عن يد ورمت في العمل : « هذه يد يحبها الله ورسوله » وتتوارد احاديثه تترى عن هذه القداسة : « من امسى كالاً من عمل يده امسى مغفورا له » ، « ان الله يحب العبد المحترف » . . «ما اكل احدكم طعاما قط خيرا من عمل يده» .

ولقد مر ان بعض فقهاءالاسلام يجعل للعامل الحق فيالحصول على نصف الربح ، والمبدأ العام الذي يجعل للحاكم ان يستجد من الاحكام بقدر ما يجد من الاقضية ، يجعل للدولة من حقوق التشريع العمالية ما تراه دائما وفق مطالب المجتمع المتجدد ، ومبدأ المصالح المرسلة (اي مصالح المجتمع التي لم يرد فيها نص) ومبدأ سد الذرائع (اي توقي الاخطار المحتملة) كفيلان بمنح الدولة كل الحرية في التشريع ، حسب مقتضيات الاحوال في حدود العدل وكفاية العامل ورضاه .

وفي هذا المضطرب الواسع ، والحرية العريضة ، فسحة لتلافي كل ظرف طارىء ومواجهة كل حالة استثنائية ، على ضوء المصلحة الاجتماعية العامة ، وعلى ضوء المبادىء الاسلامية الاخرى، التي تحرم الغبن ، كما تحرم كل اجراء يؤدي الى الترف في جانب والحرمان في جانب ، او يؤدي الى احتباس المال في ايد قليلة ، وتداوله في محيط ضيق . ومن اول مبادىء الاسلام الا يكون المال في ايدي الاغنياء وحدهم : « كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم » فكل نظام للاجور يؤدي الى هذه النتيجة هو نظام محرم لا يقره الاسلام . وعلى ضوء هذا المبدا وتلك المبادىء العامة السابقة يمكن التشريع للاجور في اطمئنان .

اما ساعات العمل فهي محدودة بالمبدا الاسلامي العام الذي يحرم الضرر : « لا ضرر ولا ضرار » فكل مـا يؤدي الى ارهـاق صحة العامل ، او حرمانه حق الراحة الضرورية ، او حق الاطمئنان النفسي على حاضره وعلى مستقبله ، هو نظام محرّم لا يقره الاسلام في العمل ولا يرضاه ، وعلى الدولة ان تشرع في هذه الحدود حسب المقتضيات .

ونظام العمل نظام متجدد ، ومقتضياته وظروفه ابدا في تغير . لهذا وضع الاسلام المبادىء العامة للتشريع له ، ولم يحدد قوانين ثابتة ، فتلك خطته العامة ليواجه حاجات الحياة المتجددة، ويتقبل تجارب البشرية الواقعة في كل زمان ، ويبقى حارسا للاتجاه العام، كي لا يحيد عن وجهته ، ولا يخالف عن روحه ومبادئه .

ولقد كانت هنالك بقية من الحديث عن « الملكية الفردية » آثرت نقلها الى هنا ، لانها حديث عن « الاحتكار » وللاحتكار صلة بالملكية العامة ، وصلة بالعمل والاجور . ذلك ان نظام الاحتكـار كثيرا ما يؤدي الى تحكم صاحب العمل في العمال — فوق تحكمه في السوق والاستهلاك — لان العمال الذين يعملون في صناعة او حرفة محتكرة لفرد او شركة ، يعانون نظاما اشبه شيء بنظـام الاقطاع . كل ما هنالك ان الاقطاع احتكار للارض ، والاحتكـار

احتكار للصنف .

والاسلام يحرم نظام الاحتكار ، كما يحرم ما يدعونه حقوق الامتياز بالنسبة الى الموارد العامة والخدمات العامة . وما يسمى اليوم « تاميم المرافق العامة » هو مبدأ رئيسي من مبادىء الاسلام.

فكل هذه الاحتكارات القائمة : كاحتكار صناعة السكر ، واحتكار صناعة المواد الكحولية ، واحتكار صناعة السمنت . وكل الامتيازات المعروفة : كامتياز شركة القنال ، وامتياز شركة الترام، وامتياز شركات النور والمياه .. وما اليها ، كلها نظم لا يقرها الاسلام . اولا : لانها وسيلة من وسائل التحكم في السعر والتحكم في العامل . وثانيا : لانها وسيلة لتضخيم الثروة بطريقة جائرة لا تحقق تكافؤ الفرص للجميع . وثالثا : لانها وسيلة من وسائل تعطيل الانتاج ورفض التحسينات في كثير من الاحيان

ان المرافق العامة يجب ان تبقى ملكا للشعب ، وحصيلة استغلالها يجب ان تعود لخزانة الشعب لا لخزائن الافراد .. هذا هو الاسلام !

عدم تكافؤ الفرص

لا يكره الاسلام شيئا كما يكره اختلال المساواة في اية صورة من الصور ، وفي اي وضع من الاوضاع ، ولا ينفي شيئا من محيطه ، كما ينفي التفاوت بسبب المولد او الجنس او اللون او الثراء ... انه يقر مبدأ التفاوت في الطاقة والمقدرة ، ولكن الجميع يجب أن تتاح لهم فرص متكافئة، فاذا سبق احد بموهبته وحدها، لا بأي اعتبار آخر ، فذلك هو السبق الوحيد الذي يقره الاسلام.

ليس احد بمولده خيرا من احد ، والولادة في اي بيت علا او هبط ، لا تمنح الفرد مزية زائدة ، ولا تسلبه مزية قائمة . وما عادى الاسلام شيئا كما عادى فكرة الطبقات .

ويخلط بعض الناس في فهم الاسلام ، فيفهمون آية : «ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات » بانها اقرار لنظام الطبقات في الاسلام. وفي مجتمع مريض كمجتمعنا وحده يمكن ان يفهم هذا المعنى !.. ان الارتفاع هنا فردي لا طبقي، فردي قائم على الموهبة الشخصية، لا طبقي قائم على المولد في طبقة . فالموهبة الفردية تهيىء لصاحبها مكانه باستحقاق ، اما الولادة في بيت فلا ترتب لصاحبها مقاما واحدا لا يستحقه باستعداده وعمله في الحياة . وهذا هو الفارق الاصيل بين النظام الطبقي ونظام الاسلام . وهو فارق حاسم لا مجال لتجاهله او الشك فيه . وهو يهدم النظام الطبقي من اساسه ، ويقرر التفاوت بين الافراد بتفاوت المواهب والاستعدادات .

من حق كل وليد في الامة ان يولد صحيحا خاليا من الامراض الوراثية كالآخرين . فضمانات الحياة التي تتهيأ لاي ابوين في المجتمع ، يجب ان تتهيأ لكل ابوين آخرين . لا لحسابهما وحدهما، ولكن لحساب الوليد الذي سينسلانه ، لان فرصة الصحة يجب ان توفر له قبل ان يجيء . والا فليس هنالك تكافؤ حقيقي في الفرص بين وليد مصاب بالصرع الوراثي ووليد سليم . وتكافؤ الفرص لا يبدأ بعد الميلاد ، فالميلاد موعد متاخر جدا لتحقيق هذا التكافؤ . وعلى الدولة ان تضمن لكل وليد هذه الفرصة ، بمنحه ابوين صحيحين على قدر المستطاع !

ومن حق كل وليد ان يجد من الكفاية الغذائية ، والرعاية التربوية ، ما يجده كل وليد آخر في الدولة . فاذا حدث ان كان دخل ابويه او ظروفهما المعيشية لا تمكنهما من توفير هذه الفرصة له ، فان على الدولة ان توفر لهما هذه الظروف .. لا لحسابهما وحدهما كعضوين في هذا المجتمع ، بل لحساب هذا الوليد، الذي يصبح تكافؤ الفرص بالقياس اليه خرافة ، اذا نشا ناقص التغذية او مهملا في البيئة ، بينما هنالك ولدان آخرون محظوظون تتاح لهم هذه الفرصة دونه في الحياة .

ومن حق كل طفل بعد ذلك ان يجد العلم وان يجد الصحة ،

وان يجد الفرصة للعمل ، بحسب طاقته وموهبته . وهنا يكون للتفاوت الطبيعي حقه ، لانه ينشأ عن التفاوت في داخل الشخصيات ، لا في ظاهر المجتمع والملابسات .

وفي تاريخ الاسلام من النماذج ما لا حصر له على سمو المواهب الفردية بأصحابها الى اعلى المستويات الاجتماعية ، لا يضيرهم مولد في بيت فقير ، ولا في بيئة متواضعة ، ولا في حرفة صغيرة ذلك انه : « لا فضل لأحد على أحد الا بالتقوى » .

والاسلام لا يقر تلك الامتيازات الكاذبة التي تمنح للاطفال بمجرد مولدهم ، لمجرد ولادتهم في بيت او اسرة ، او تمنح للابناء لمجرد خواطر الآباء !.. هذا الذي يتاح له الالتحاق بالكلية الحربية قبل زميله لمجرد انه من اسرة ارستقراطية او عسكرية ! وذلك الذي يتاح له العمل في وظائف النيابة او السلك السياسي لمجرد انه من اسرة ارستقراطية او قضائية ! وذاك الذي يرسل في بعثة علمية الى الخارج لا لأنه الاول أو الأليق ، ولكن لأنه من بيت ارستقراطي !.. كل اولئك امور لا يعرفها الاسلام ، لأنها تصدم مبدأ اساسيا من مبادئه التي جاء ليقررها في الحياة .

وعندما ننظر الى الاوضاع الاجتماعية القائمة من هذه الزاوية الاسلامية ، نطلع على شناعات بشعة ، ونبصر بمخالفات صريحة ، بل نجد الاساس الاجتماعي كله مقلوبا .. ان الاسلام ليصرخ في وجه الاستثناءات والمحسوبيات ، التي اصبحت قوام الدولة وقوام المجتمع . ولو كان الامر للاسلام ما ترك هذا البناء كله يقوم على الظلم والتفريق والفساد كما قام !

فساد العمل وضعف الانتاج

احب ان الفت النظر بشدة الى ان هنالك خطرا حقيقيا مصلتا على رقابنا ، وعلى وجودنا ذاته كامنة : خطر الفساد الشامل لكل جهاز العمل في الدولة وفي المجتمع ، ذلك الفساد الذي يؤدي

الى ضعف الانتاج العام ، بل الى الشلل في بعض الاحيان .

ولقد تحدثت عن هذا الشلل في مقدمات الكتاب ، ولكني احب الا اكتفي بما قلت هناك : اننا على حافة الهاوية والخراب بسبب تناقص الغلة وضعف الانتاج ، وان الفقر والبؤس والهوان لا تحيق بنا لمجرد سوء التوزيع وحده ، بل لأن مجموع الثروة القومية في ذاته ضئيل ، ولان الانتاج العام دون ما ينبغي أن يكون عليه بكثير .

هذا الشلل وذلك الفساد كلاهما وليد امراض اجتماعية شتى : وليد سوء توزيع الملكيات والثروات ، ووليد فساد نظام العمل والاجور ، وعدم تكافؤ الجهد والجزاء ، ووليد انعدام تكافؤ الفرص والقضاء بذلك على القوى والكفايات التي لم توهب نعمة الولادة في بيت مرموق ، او الاحتماء ببيت من بيوت الثراء ... ثم من بعد ذلك كله وليد الانحلال الخلقي ، الذي ينشأ من تلك العوامل جميعا ، وينشأ من خواء الضمير من عقيدة دافعة ، توقظ شعور الفرد بالواجب ، وتدفع المجتمع كله الى الخلق والتقدم والاستعلاء .

ولقد اسلفنا راي الاسلام في المشكلات الثلاث الكبيرة ، التي تنشىء بدورها — او تشارك في انشاء — هذه المشكلة الضخمة الرابعة . فالآن ننظر كيف يعالج الاسلام هذه المشكلة ايضا .

انه يعالجها بازالة مسبباتها المادية الاولى ، ثم يعالجها بامتلاء النفس بالعقيدة الدافعة ، العقيدة التي تملأ فراغ النفس وخواءها، وترفعها الى الله ، وتجعل للفرد هدفا اكبر من ذاته ، هو ذلك المجتمع الذي يعيش فيه ، وتلك الانسانية التي هو منها .

ولقد يظن المصابون بضحالة الروح ، وقزامة الذات ، وخواء الضمير ان هذا الذي نقوله هنا كلام وعظي لا رصيد له في واقع الحياة !

ونحن لا نكتب لهؤلاء .. فهؤلاء ميئوس منهم في كل زمان ،

وضمير الانسانية لم ينضب على الرغم من ايحاءاتهم له في كل مكان .

ان الفرد بلا عقيدة كلية تربطه بالارض والسماء ، قزم ضائع، ولقي مهمل ، والعقيدة ضرورية له حتى في عالم الشيوعية الذي يسخر بالعوامل الروحية في الحياة ! فلولا حرارة العقيدة ما تلقى الالوف منافي سيبيريا وسجون القيصرية بمثل ذلك الحماس الذي مكن للحكم الشيوعي في نهاية المطاف !

ولقد انتهت بنا الاوضاع الاجتماعية المريضة الى فساد في الذمم والضمائر ، واستهتار بالعمل والواجب ، لا يقتصر اثرهما على مجال دون مجال . وجريمة الاستثناءات في دواوين الحكومة انتهت بالمحظوظين والمنسيين سواء الى الاستهتار بالعمل ، لأنه لا يؤدي الى ثمرة ، ولا يترتب عليه ثواب ولا عقاب . وجريمة الحرمان من عدالة الاجر والضمانات الاجتماعية في دائرة العمل انتهت بالعمال الى الاستهتار ، لان الفوضى ايسر من النظام ، في محيط لا عدالة فيه ولا وزن للجهد ولا جزاء . وجريمة انعدام تكافؤ الفرص اهدرت وبددت ثروات بشرية هائلة وحولتها الى فتات وحطام . وجريمة تكتيل الثروة كلها في ايد قليلة واحتكارها في حيازة عدد محدود انتهت الى تعطل الملايين ، وتمضية اوقات فراغهم على المقاهي في المدن ، وبجوار الاجران في القرى ، وبذلك اصبحت هذه الملايين المتعطلة مستهلكة لا منتجة ، لانها لا تجد ما تعمل ، والدولة لا تجد المال للمشروعات الانشائية ، لأنها لا تحصل الا على ميزانية هزيلة من ضرائب هزيلة ، اشفاقا على رؤوس الاموال ان تضار .

ثم اضيف الى هذا البلاء كله خواء روح الشعب من العقيدة الدافعة على العمل ، وحساسية الضمير التي تشيعها العقيدة . فتمت تلك الحلقة المفرغة الاثيمة التي لا يحطمها الا الاسلام .

ان الاسلام ليحارب روح البطالة بكل روحه ، ويكافح اسبابها

بالوسائل التي اسلفنا . فيعالجها في عالم الضمير والشعور ، وفي دنيا العمل والواقع . فالبطالة هي اعدى اعدائه على اي لون وفي اي وضع ، وفي جميع الصور والاشكال .

الاسلام عدو التبطل الناشيء عن تكدس الثراء ، فلا جزاء الا على الجهد ، ولا اجر الا على العمل . فأما القاعدون الذين لا يعملون ، فثراؤهم حرام ، واموالهم حرام ، وعلى الدولة ان تنتفع بذلك الثراء لحساب المجتمع ، والا تدعه لذلك المتبطل الكسلان .

والاسلام عدو التبطل الناشيء عن الكسل ، وحب الدعة ، والاسترزاق من ايسر السبل كالاستجداء . وهو ينذر الذين يتسولون وهم قادرون : ان يأتوا يوم القيامة وليس في وجوههم مزعة لحم !

والاسلام عدو التبطل باسم العبادة والتدين ! فالعبادة ليست وظيفة حياة ، وليس لها الا وقتها المعلوم « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله » وتمضية الوقت في التراتيل والدعوات بلا عمل منتج ينمي الحياة ، امر لا يعرفه الاسلام ، ولا يقر عليه تلك الالوف المؤلفة في مصر التي لا عمل لها الا اقامة الصلوات في المساجد او تلاوة الادعية والاذكار في الموالد !

ولو كان الامر للاسلام لجند الجميع للعمل ، فان لم يجدوا فالدولة حاضرة ، وحق العمل كحق الطعام ، فالعمل زكاة للارواح والاجسام ، وعبادة من عبادات الاسلام ، التي يجب ان تقيمها الدولة وتهيىء لها السبل . والبطالة مفسدة ، وعلى الدولة ان تقي المجتمع عواقبها ، وتأخذ الطريق على اسبابها ، فمن اتاها بعد ذلك طوعا ، فعلى الدولة ان تصده عنها ، وان تجنده للعمل ما استطاع .

مشكلات اخرى يحلها الاسلام

وبعد . فان الاسلام لا يحل لنا المشكلات الاجتماعية وحدها، ولا يقف بنا داخل حدودنا الداخلية في عزلة وانزواء .

انه يمنحنا الذاتية الشخصية التي نبرز بها في المجتمعات الدولية . فالاسلام عقيدة استعلاء واعتداد ، وهو يأبى علينا ان نكون ذيلا وامّعة ، او أن نسلم زمامنا الى كتلة شرقية او غربية ، او ان نقف تحت لواء غير لواء الاسلام. اللواء الذي يمكن ان تجتمع اليه كتلة ضخمة يتجاوز تعدادها ثلثمائة مليون ، والتي تتحكم بمراكزها الاستراتيجية ، وبمواردها الطبيعية ، في كتلتي الغرب والشرق سواء . لو كان لها علم واحد تؤوب اليه ، وتصطف تحته في استعلاء الاسلام وعزة الاسلام .

انه ليس من الضروري الآن ان تكون هنالك حكومة واحدة في تلك الرقعة الفسيحة ، انما المهم ان تتكتل تحت لواء واحد ، فالاسلام هو الاسلام ، وقوانينه هي قوانينه ، وشخصيته من القوة والوضوح بحيث لا تندغم ولا تنبهم في نظام آخر ، وروحه من القوة بحيث لا تخضع للتلاشي والفناء .

انما نحن مستعمرات ومناطق نفوذ ، لأننا تخلينا عن هذا الروح ، فتخلى عنا ، وخجلنا من الوقوف تحت لوائه فانف منا ، وتهنا في غمار الآخرين ، ففقدنا شارة العزة والاستعلاء والاحترام.

فلنعتزم ان نسلك الطريق الوحيد الذي يرد الينا اعتبارنا بين كتلتي الشرق والغرب ، ويمنحنا احترامنا في نظر الجميع . وقد يرد للعالم طمانينته وامنه ، حين تنهض الكتلة المسلمة ، فتمسك بيدها ميزان التوازن والسلام ، وتضع حدا لهذا الجنون الذي تزاوله الكتلتان باثارة حرب ثالثة ، لانها تقف وجها لوجه ، تتنازع وتتصارع علينا . نحن الممتلكات والمستعمرات والاشياء !

حينئذ لا ينعق الناعقون في ارض الاسلام من هنا ومن هناك:

انضموا الى هذا المعسكر او ذاك ! كأنه لا سبيل لنا الا هذا او ذاك ، وكأنه لا مفر من ان نكون ابدا في ذيل القافلة ، ولا يكون لنا يوما كيان مستقل ، ووجود محترم ، وكأننا لا نملك ان نبرز الى الوجود كتلة ثالثة تمسك بيدها ميزان التوازن ، وتمثل فلسفة اجتماعية خاصة ، قائمة على فكرة الاسلام الكلية التي تتضمن محاسن الاشتراكية والشيوعية جميعا ، وتبرأ من عيوبهما جميعا ، وتزيد على هذه وتلك آفاقا اعلى ، وعدالة اشمل ، ومثالا كريما للحياة لم تعرف مثله الحياة .

ونحن نملك ان نقدم للبشرية هذه الفكرة التي تهدف الى تعاون انساني كامل ؛ والى تكافل اجتماعي صحيح ، وترمي الى رفع قيمة الحياة الى المستوى اللائق بعالم يصدر عن الله ، ومكاننا اذن ليس في ذيل القافلة ، ولكن في ماخذ الزمام (١) .

---

(١) فكرة الاسلام الكاملة عن الحياة عالجت منها طرفا في كتاب « العدالة الاجتماعية » في فصل « طبيعة العدالة الاجتماعية في الاسلام » وموعدي بمعالجتها علاجا شاملا كتاب مستقل عن : « فكرة الاسلام عن الكون والحياة والانسان » بمشيئة الله .

لابد للإسلام أن يحكم

اذا اريد للاسلام ان يعمل ، فلا بد للاسلام ان يحكم ، فما جاء هذا الدين لينزوي في الصوامع والمعابد ، او يستكن في القلوب والضمائر ، انما جاء ليحكم الحياة ويصرفها ، ويصوغ المجتمع وفق فكرته الكاملة عن الحياة ، لا بالوعظ والارشاد ، بل كذلك بالتشريع والتنظيم . جاء ليترجم مبادئه ونظرياته ، نظاما وحياة، ويجعل اوامره ونواهيه مجتمعا حيا وناسا من اللحم والدم ، يدبون على هذه الارض، ويمثلون بسلوكهم ونظام حياتهم، وعلاقات مجتمعهم ، وشكل حكمهم ... مبادىء هذا الدين وافكاره ، وقوانينه وتشريعاته .

ومما سبق عرضه من مشكلات اجتماعية وقومية ، وطريقة علاج الاسلام لها ، يتبين بما لا لبس فيه ضرورة الحكم للاسلام . والا فكيف يواجه هذه المشكلات وسواها ، وكيف يعالجها ويجد لها الحلول ؟

انه لا يملك توزيع الثروة طبقا لحاجات المجتمع ، او تحقيق العدالة بين الجهد والجزاء ، او منح الجميع فرصا متكافئة في الحياة ، او تجنيد القوى المعطلة للعمل والانتاج ، او دفع الدولة الى اتخاذ موقف معين في المجتمع الدولي ، او تجنيد الجيوش واعداد القوى ... او ... او ... مما يمثل مبادئه الاساسية التي يقوم عليها كيانه ذاته في فكرته الكلية التي جاء ليصوغ منها الحياة ... انه لا يملك شيئا من هذا كله وهو عقيدة مستسرة في الضمير ، او صلاة خاشعة في المسجد ، او مناجاة بين العبد ومولاه .

والذين يتحدثون عن الاسلام وانتفاء حاجته الى الحكم ، او عن امكان تحققه في الحياة دون تحكيمه في الحياة .. انما يلقون حديثا فيه من التفاهة والقزامة ما لا يرتفع الى شرف المناقشة واحترام الجدل ! انهم لا يدلون بهذا على جهلهم لطبيعة هذا الدين من اساسها ، ولا بعدهم عن الالمام بحقائقه البسيطة التي يلام على جهلها المبتدئون ؛ بل يدلون على جهل بكل مقومات الطبيعة البشرية ، وكل العوامل المؤثرة في تكوين المجتمعات ؛ وكل الثقافات الضرورية لاستقبال الحياة ، بله الحكم على الحياة !

ولكن القزامة والتفاهة الفاشية عند الكثيرين في هذا الجيل، وسطحية التفكير وضحالة الثقافة ، تقبل مثل هذا الكلام احيانا، حتى ليردده وزراء في الحكم ، لا يخجلون ان يطلع الناس في مصر وفي غير مصر على مدى ما يتمتعون به من سذاجة وغفلة ، ومن سطحية وبعد عن الثقافة — وهم الذين يدعون انفسهم او يدعوهم الناس « مثقفين » !

في العالم المسيحي الغربي يدخل الفرد الى الكنيسة فيستمع الى المواعظ والتراتيل ، وقد يخشع قلبه ، وهو ينصت الى صوت الواعظ المؤثر ؛ والى الموسيقى المنبعثة من الجوقة ، والتراتيل الخاشعة ، والابخرة الاريجة المطرة ...

ولكنه حين يغادر الكنيسة يجد قانونا آخر يحكم الحياة الواقعة ويصرفها ، ويجد مجتمعا يقوم على اساس هذا القانون ، الذي لا علاقة بين روحه وروح المسيحية .

وكثيرا ما ذهبت الى هذه الكنائس ، واستمعت الى الوعاظ في الكنيسة ، والى الموسيقى والتراتيل والادعية ، وكثيرا ما استمعت الى اذاعة الاباء في محطات الاذاعة في الاعياد المسيحية.. دائما يحاول الآباء ان يعقدوا الصلة بين قلب الفرد وبين الله . ولكن واحدا منهم لم أسمعه يقول : كيف يمكن ان تكون مسيحيا في واقع الحياة اليومية ، ذلك ان المسيحية انما هي مجرد دعوة

للتطهر الروحي ، ولم تتضمن تشريعا للحياة الواقعة ، بل تركت ذلك لقيصر .

وكان من اثر هذا في العالم المسيحي ان اصبحت المسيحية في جانب والحياة الواقعة في جانب ، وعلى توالي الازمان اصبحت المسيحية محصورة داخل الكنيسة ، والحياة من حولها ابعد ما تكون عن روحها السمحة المتطهرة . فلما نشطت الكنيسة في السنوات الاخيرة للاتصال بالمجتمع من جديد ، لم يكن همها ان ترفع الناس اليها ، بل كانت طريقها ان تهبط هي الى الناس . واذا قلت تهبط ، فلست اعني انها تتبسط وتواجه الحياة بحلول عملية ، انما أعني انها تملق شهواتهم ورغباتهم ، وتتغاضى عن لذائذهم الهابطة ونزواتهم الجامحة ، لتضمن الا يعيد المجتمع نبذها ، كما نبذها في مطلع النهضة والاحياء .

نحن ببلاهة غبية ، وسطحية تافهة قد حاولنا بالاسلام هذه المحاولة ، لا لأن الاسلام لم يتضمن التشريعات التي تحكم الحياة وتصرفها ، بل لأننا بشعور العبيد وعلى طريقة القرود ، قد أردنا ان نجعل مصر قطعة من اوروبا ، ولما كانت اوروبا تحكمها القوانين المدنية لا الدينية ، فقد فعلناها نحن ايضا ! دون فطنة الى ان اوروبا لم يكن لها مفر من ذلك ، لأنها لم تجد في المسيحية تشريعا للحياة ، وانما وجدتها مجرد عقيدة روحية وصلاة !

لقد فطن الاسلام الى ان العقيدة لا يمكن ان تتحقق بذاتها في واقع الحياة ما لم تتمثل في نظام اجتماعي معين ، وتتحول الى تشريعات تحكم الحياة ، وتكيّف علاقاتها الواقعية المتجددة . ولكننا نحن بحماقة غبية لم نفطن الى هذا الذي فطن اليه الاسلام ، وصاغ نفسه على اساسه : عقيدة تتمثل في شريعة ، وشريعة هي تفسير وتحقيق لهذه العقيدة ، ووحدة شعورية تشريعية ، تتالف منها حياة واقعة ، ممثلة في العقيدة والسلوك ، وفي العبادات والمعاملات ، وفي السرائر والجوارح ، وفي الافراد والجماعات .

لقد سمعنا الاوروبيين يقولون : ان الدين علاقة ما بين الفرد وربه ، وليس له ان يتدخل في الحياة المدنية .. فرددنا كالببغاوات الفارغة الدماغ هذا الذي سمعناه !

نعم ! الدين علاقة ما بين الفرد وربه في المسيحية ، ولاوروبا عذرها في هذا ، لأن دينها لم يبين لهـا كيف يتدخل في الحيـاة المدنية ، وحين تدخل آباء الكنيسة في تلك الحياة تدخلوا لصالح انفسهم ، وبوحي من هذه المصالح ، لا بوحي من المسيحية التي لم تتضمن شيئا عن الحياة المدنية . فلما ثقلت وطأة الكنيسة ورجالها على الناس ، وتحولت الى سلطة دكتاتورية ، تتخذ من الدين ستارا لمطامعها الدنيوية .. نفض النـاس هـذا السلطان عن رقابهم ، ووقفوا الكنيسة ورجالهـا عند حدهم الذي جعلته لهم الديانة ذاتها ، اي عند اعتاب الكنيسة .

فاما الاسلام فقد انشأ مجتمعا محكوما بشرائعه ، التي يمكن الرجوع اليها هي ذاتها لوقف كل طغيان لمن قد يسمون انفسهم « رجال الدين » حين يتشبهون برجـال الكنيسة ، ويحـاولون اكتساب سلطة دينية !

ومع وضوح هذه الحقائق ، وبساطتها ، نجد في جيل الاقزام الذي نعيش فيه من يحاول ان يبدو للناس مثقفا جدا ! فينعق بفصل الدولة عن الدين ! لأن الدين يجب ان يتدبر شؤون الروح، ويدع الحياة للقوانين الارضية !

وفي فترات الانحطاط تبـدو في الشعوب العريقة قزامـة عجيبة وضآلة . وينفش البغاث الصغير ريشه ويختال . ولكـن عهد الاقزام في مصر قصير الاجل مشرف على الزوال !

***

انني مؤمن كل الايمان بان لا نجاة لهذه الامة ولا حياة الا ان تعود الى عقيدة ضخمة ، تنفض عنها قزامة الجيل وتفاهته ، وتملأ

حياتها حركة وحيوية واقتحاما .

وهذه العقيدة الضخمة اليوم ليست شيئـا بالقياس الـى مصر الا الاسلام .

ان العقيدة الوطنية وحدها لم تعد تكفي ، بدليـل انهـا لا تستطيع ان تقاوم العقيدة الشيوعية في كثير من اقطار الارض . ذلك ان فكرة العدالة الاجتماعية بين الافراد في حيـاة المجتمـع ، اخذت تطغى بقوة على النعرة الوطنية في اوطان تقسم أهلها الـى عبيد واسياد .

والاسلام هو وحده القادر على تحقيق الفكرتين جميعا ، بلا تعارض ولا تصادم ولا مغالاة : فكرة الوطنية في الوطن الاسلامي الاكبر حيثما مد الاسلام ظله . وفكرة العدالة الاجتماعية الكاملة في هذا الوطن الكبير .

والاسلام لا يحقق هذه العدالة الاجتماعية الكاملة في ذلك الوطن الكبير للمسلمين من أهله وحدهم ، بل يحققها كذلك لجميع سكانه على اختلاف الاديان والاجناس واللغات والالوان .. وتلك مزيته الانسانية الكبرى التي لا تحققها عقيدة أخرى .

ولكن ينبغي أن نكرر دائما ان هذا كله لا يتحقق بمجرد أن يذهب الناس الى المساجد ، ويحتفلوا بالمولد النبوي الشريف ، ويلقوا الخطب في مدح سيد المرسلـين ! ولا بأن تعـج الارض بالمجاذيب والدراويش ، يتلون الادعية ، ويقيمون الاذكار ،ويحملون المسابح ، ويتمتمون او يهدرون !

ولا يتحقق بأن تكون لنا « هيئة كبار علماء » تصدر قرارات الحرمان ، ثم تعود فتصدر صكـوك الغفـران ، لتغـير الظروف والملابسات ، او تصدر الفتاوى في تخطئـة أبـي ذر لانـه طالب بالعدالة الاجتماعية للفقراء ، او لترفع العرائض الانشائية ،تتضمن الوعظ الشريف ، ورثاء الاخلاق التي انحلت في هذا الزمان !

ان شيئا من هذا كله لن يجدي شيئا ، انما الذي يجدي وحده ان يحكم الاسلام الحياة ويصرفها . ان تحكم الدولة حكما اسلاميا . ان تستمد القوانين التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض ، وعلاقاتهم بالحكومة وعلاقات الحكومة بهم من الشريعة الاسلامية وليس قانون الاحوال الشخصية وحده بل قانون قانون العقوبات والقانون المدني والتجاري وسائر القوانين والتشريعات التي تكيف صورة المجتمع وتمنحه شكله ونظامه الخاص .

ان دستور الدولة الحاضر ينص على ان دين الدولة الرسمي هو الاسلام . وليس لهذا من معنى الا ان تستمد القوانين كلها من الشريعة الاسلامية ، والشريعة الاسلامية قادرة على تلبية الحياة العصرية ، ونموها وتجددها . مع الانتفاع بتجاربنا نحن وبتجارب الانسانية كلها فيما يتفق مع فكرة الاسلام الكلية ومبادئه العليا عن الحياة .

لست ازعم ان الفقه الاسلامي الحاضر قادر اللحظة على الاحاطة بكل مطالب الحياة العصرية الجزئية ، فقد وقف نمو هذا الفقه حقبة من الدهر طويلة . ولكن اصول الشريعة الاسلامية بما فيها من مرونة وشمول قادرة على ان تلبي حاجات الحياة — على النحو الذي اوضحته في مشكلاتنا الكبرى — وتبقى صياغة المواد القانونية ، المستمدة من الاصول العامة ، حسب الحاجات المتجددة ابدا (١)

ولقد يخطر لبعضهم ان يقول : وعلام هذا العناء ؟ وما لنا لا ندع هذه الشريعة جملة ، ونستمد تشريعاتنا من تلك التجارب الجاهزة التي انتهت اليها البشرية اخيرا ؟

وهي قولة من استمرأ الاستعارة الجاهزة حتى فقد كل

---

(١) قام الاستاذ عبد القادر عودة بجهد ضخم رائع في هذا المجال في كتابه : « التشريع الجنائي الاسلامي » في مجلدين نشر اولهما والثاني في الطريق .

شعور بشخصيته وبقوميته ، وبتاريخه الحي الذي يعيش في كيانه . وقولة السطحي الذي لا يدرك كيف تتم الاستجابات بين الفرد والبيئة ، واخيرا فهي قولة الذي لا يعرف من اين تستمد الامم عناصر البقاء والمقاومة في معترك الحياة .

ان الطريق الذي ندعو اليه نحن هو الطريق الذي يضمن لروح هذه الامة ان تستشرف ، وتتطلع الى حياة كريمة عزيزة ، والذي يمكنها ان تحقق للكتلة الاسلامية البروز والتميز بين الكتلتين الشرقية والغربية ، البروز بمجتمع خاص له سماته الواضحة ، وله شخصيته المستقلة . وذو الرصيد الاصيل انما يزيد رصيده وينمو بما يقع له من زيادات وعلاوات . فأما المفلس المستجدي فلن يكون يوما ذا رصيد قائم ، وان ظل حياته يسأل ويستجدي !

***

لا بد للاسلام ان يحكم ليحقق وجوده ، وليحقق ذلك المجتمع الكامل العادل الذي رسمنا الكثير من خطوطه . وما كان شيء من ذلك ليتحقق والاسلام بعيد عن الحكم في الحياة .

ولا بد للاسلام ان يحكم ليقدم للانسانية مجتمعا من طراز آخر ، قد تجد فيه الانسانية حلمها الذي تحاوله الشيوعية ، ولكنها تطمسه بوقوفها عند حدود الطعام والشراب ، وتحاوله الاشتراكية ولكن طبيعتها المادية تحرمه الروح والطلاقة ، والذي حاولته المسيحية ولكنها لم تنظم له الشرائع ولم تضع له القوانين .

ولا بد للاسلام ان يحكم لانه العقيدة الوحيدة الايجابية الانشائية التي تصوغ من المسيحية والشيوعية معا مزيجا كاملا ، يتضمن اهدافهما جميعا ، ويزيد عليهما التوازن والتناسق والاعتدال .

والعالم لا يستغني عن عقيدة ايجابية . والمسيحية قد ادت دورها ، ولم تعد عاملا ايجابيا في واقع البشرية ، فلقد اصبحت الجماهير تقود الكنيسة ، والكنيسة تتبعها بلا توقف ولا تحرج ولا مدافعة حتى عن اقدس اقداسها واشرف اهدافها في القلب والضمير !

واخيرا يجب ان يحكم الاسلام ، لان الاسلام كان اعرف بطبيعته وطبيعة الحياة وهو يقرر : ان لا اسلام بلا حكم ، ولا مسلمين بلا اسلام : « ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الكافرون » . صدق الله العظيم .

شبهات حول حكم الإسلام

تغيم على الاسلام ، وعلى حكم الاسلام ، شبهات داكنة في نفوس هذا الجيل ، بعض هذه الشبهات ناشيء من الجهل الفاضح بكل شيء عن هذا الدين ؛ ذلك الجهل الذي لا يريد أصحابه أن يعترفوا بانه نقص في ثقافتهم . على الاقل بوصفهم ناسا يعيشون في دولة دينها الرسمي هو الاسلام . والاسلام عقيدة الاغلبية من سكانها ، فهو اذن عنصر ضروري لدراسة المجتمع فيها ، ولكل دراسة عقلية او فنية في محيطها . وبدلا من ان يعتذروا عن هذا النقص المعيب في ثقافتهم ، فانهم يتخذون منه فضيلة ، أو يستشهدون به على أنهم « مثقفون » !

وبعض هذه الشبهات ناشيء عن التباس فكرة الدين ذاته ، بمن يسمون في هذا العصر « رجال الدين » . وهو التباس مؤذ للاسلام ولصورته في نفوس الناس ، فهؤلاء « الرجال الدين » ابعد خلق الله من ان يمثلوا فكرته ، ويرسموا صورته لا بثقافتهم ، ولا بسلوكهم ، ولا حتى بزيهم وهيئتهم ، ولكن الجهل بحقيقة هذا الدين ، والثقافة المدرسية الباقية من عهد الاحتلال ، والتي ما يزال يشرف عليها الرجال الذين صنعهم الاحتلال ، والادوات التنفيذية التي صاغها بيده ، لتسد مسده بعد رحيله . هذا الجهل الناشيء من تلك الثقافة .. لا يدع للناس صورة عن الاسلام يرونها الا في هؤلاء الذين يعرفونهم « رجال دين » وهي اسوا صورة ممكنة للاسلام ، ولأي دين من الاديان !

وبعض هذه الشبهات ناشيء عن التباس صورة حكم الاسلام ببعض انواع الحكومات التي تسمي نفسها « حكومات اسلامية » .

وتمثيل هذه الحكومات لحكم الاسلام كتمثيل من يسمونهم « رجال الدين » لفكرة الاسلام ! كلاهما تمثيل مزور كاذب مشوه ، بل تمثيل النقيض للنقيض . ولكن الجهل بحقيقة فكرة الاسلام عن الحكم ، حتى بين « المثقفين ! » لا يدع صورة للحكم الاسلامي اخرى ، غير هذه الصورة المزورة الشائهة الكريهة .

وبعض هذه الشبهات ناشيء من التباس صورة الحاكم الاسلامي ببعض الشخصيات التاريخية التي ادعت انها تحكم باسم الاسلام ، وهي ابعد ما تكون عن روح الاسلام وقانونه . والجهل بكل ما هو اسلامي بحكم الثقافة الاستعمارية التي يتلقاها الجيل في المدرسة وفي الصحيفة وفي المجتمع يتيح لمثل هذا الالتباس ان يغيم على الافكار والمشاعر ، ويفعل فعله في تنفير الناس من هذا اللون من الحكم البغيض !

وكل هذه الشبهات كان يكفي في جلائها مجرد المعرفة الصحيحة للحقائق التاريخية والاجتماعية للاسلام . اي ان يتلقى الجيل ثقافة حقيقية لائقة . اجل . لائقة ! فانه لا يليق بمثقف ان يجهل كل شيء عن عنصر اساسي مؤثر في مجتمعه وفي عقلية شعبه ، وفنه وأدبه ، ونظرته الى الكون والحياة . وليست هذه الثقافة عسيرة — كما يتصور الكثيرون — حين يتصورون الكتب الصفراء ، وتتمثل لهم صورة الدراسة الازهرية بما فيها من الغاز ومعميات ! كلا ! ان هذا ليس هو الثقافة الاسلامية المطلوبة للجيل ، فالاسلام يسر لا عسر ، وهو عقيدة بسيطة واضحة لا تعقيد فيها ولا غموض ، ونظام اجتماعي متوازن متناسق ، لا اقطاع فيه ولا ترف ولا حرمان ، ونظام للحكم ليس فيه حقوق الهية ، ولا دم ازرق ، ولا استبداد ولا طغيان .

ومع ان جهل الجيل — والمثقفين منه بخاصة — لا يصلح عذرا لاصحابه ، فاننا نؤثر هنا ان نناقش تلك الشبهات التي تغيم في نفوس الناس على حكم الاسلام . الناس الذين نعرف حسن نياتهم ، وبراءتهم من الدوافع الخبيثة . وهؤلاء سنناقش شبهاتهم

البريئة هنا ، وتصوراتهم الناشئة عن الجهل وحده ، لا عن الغرض والهوى . فأما المغرضون الخبثاء فموعدنا معهم فصل آخر حين نواجه العداوات حول حكم الاسلام !

بدائية الحكم

يخلط الكثيرون بين النشأة التاريخية للاسلام ، وفكرة الاسلام المجردة ، القابلة للتوسع والشمول ، في التفريعات والتطبيقات .

هؤلاء حين يسمعون كلمة « الحكم الاسلامي » تقفز الى خيالهم صور الخيام الساذجة في الصحراء، وصور الاعراب الرحل على الابل ، او العرب المقيمين في الاكواخ ، ويتصورون بسذاجة ان معنى الحكم الاسلامي هو العودة الى تلك الحياة البسيطة الساذجة ، الخاوية من كل اسباب الحضارة الانسانية التي استحدثت في خلال الف واربعمائة عام !

واذن فلا عمارة ولا مدنية ، ولا صناعة ولا تجارة ، ولا علم ولا فن ، حتى الشعر ذلك الفن العربي الاصيل ، يخيل لهذا الفريق من الناس ان حكم الاسلام سيختم على أفواه قائليه ومنشديه ، ما لم يحولوه الى مواعظ دينية والفيات نحوية !

وليس حكم الاسلام وحده هو الذي يثير هذه الصورة الماحلة في خيالهم ، بل ان بعضهم ليثير هذه الصورة في حسه مجرد الربط بين الحكم وعنصر الاخلاق ! ولست انسى ان أحد « الدكاترة » في التربية العائدين من امريكا كان يتحدث معي عن المجتمع الامريكي، فقلت : ان لهذا المجتمع مزاياه ، ولكن الذي انكره عليه هو انه ينفي العنصر الاخلاقي من حسابه جملة ، ويعده منصرا دخيلا على الحياة . فانتفض في حماسة واستاذية يقول : « اذا كنا سنتحدث من الاخلاق ، اذن فلنرجع الى عيشة الخيام » .

وبمثل هذه الروح سيتولى ذلك الدكتور العظيم امداد جيل

من المعلمين في معهد التربية ، يتولون بدورهم اعداد أجيال من ابنائنا ، الذين نسلمهم اليهم في ثقة واطمئنان !

ان هؤلاء جميعا يخلطون كما قلت بين النشأة التاريخية للاسلام ، وبين النظام الاسلامي ذاته كمجرد نظام .

ان النظام الاسلامي ليس معناه فقط صورة ذلك المجتمع الاسلامي في نشأته ، بل معناه كل صورة اجتماعية خاضعة لفكرة الاسلام الكلية عن الحياة .

والنظام الاسلامي يتسع لعشرات من الصور ، تتفق مع النمو الطبيعي للمجتمع ، ومع حاجات العصر المتجددة ، ما دامت فكرة الاسلام الكلية تسيطر على هذه الصور في محيطها الخارجي الفسيح .

صورة من هذه الصور . صورة تشمل كل حضارة البشرية النظيفة وكل تجاربها العلمية الواقعية ، وتجاربها الفكرية والشعورية ، اللائقة بعالم يصدر عن الله .. هي التي تريد تحقيقها عندما نقول : اننا نريد استئناف حياة اسلامية ، محكومة بالقوانين الاسلامية (١) .

ان الشظف والبداوة ليسا اصلا من اصول الاسلام كما يعتقد بعض السذج الفضلاء ! انما كان الشظف ظاهرة اقتصادية في مرحلة خاصة ، وكان حث الناس على الصبر عليها ضرورة من ضرورات الواقع ، كيلا تتهافت نفوسهم ، وتنهار قواهم ، وتخذلهم طاقتهم على المقاومة والكفاح ، والدعوة في حاجة الى المقاومة والكفاح . فأما بعد ذلك فكل فرد مطالب بأن يستمتع في الحدود التي لا تصل الى مستوى الترف ، ولا تدع الانسان عبدا لشهواته وللذائذه ، كذلك الفريق التافه الذي يسمى في عصرنا هذا « اولاد

---

(١) « نحو مجتمع اسلامي » بحث يتضمن صورة شاملة للمقومات الاصيلة لهذا المجتمع . أرجو ان ينشر قريبا بعون الله .

الذوات » !

كذلك يخلط الكثيرون بين الشريعة الاسلامية في ذاتها ، وبين النشأة التاريخية للفقه الاسلامي ، فيحسبون ان معنى استيحاء القوانين من اشريعة ، هو الوقوف عند الاحكام الفقهية التي وردت فيها — وهي بطبيعة الحال لا تكفي لمواجهة حاجات المجتمع كلها — على توالي الزمان .

انه خلط مضحك. فهذه الشريعة بما فيها من مرونة وشمول، استجابت لمطالب حياة البادية ، كما استجابت فيما بعد لحياة الدولة الناشئة في عهد محمد ، المتوسعة في عهد عمر . ثم ظلت تستجيب لحياة الحضارة فيما بعد ، ما بقيت في الامة الاسلامية حياة . ثم توقف نمو الفقه حينما توقفت حيوية الامة الاسلامية ذاتها . فاذا دبت الحياة في هذه الامة فالشريعة الاسلامية حاضرة، تلبي حاجاتها المتجددة ، ومطالبها المتغيرة ، بما فيها من سعة ومرونة وشمول .

وانه لمن سوء الحظ ان تكون جمهرة المشتغلين بالتشريع في مصر اليوم قد تلقت تعليمها كله في ظل عقلية تشريعية اجنبية ، وانها لا تعرف عن الشريعة الاسلامية الا اليسير الزهيد . فمن الصعب ان تتصور هذه الجمهرة ، ان الشريعة الاسلامية قادرة على ان تمد المشرع الحديث ، بكل حاجات الحياة الراهنة المتجددة .

ان بعض هذه الجمهرة ليسخر من هذه الفكرة ، وهو احق بالسخرية . لانه يسخر سخرية الجهل والكسل ، وسخرية الفتنة بحضارة لم يشترك في صنعها ، وانما هو عالة عليها !

ولو كانت لنا عقلية تشريعية يقظة ، لأدركنا من تطبيق القانون الفرنسي سبعين عاما ، ذلك التصادم الذي تحدثنا عنه بين روح القانون وروح الجماهير ، وذلك التنافر بين طبيعته وطبيعة الشعب الذي يطبق عليه ، ومدى الفشل في اقناع هذا الشعب

بعدالة هذه القوانين التي تسن له .

ولو اقتنع الشعب بعدالة القانون ، ولو اتفقت روحه مع روحه ، ما عاشت تلك الظاهرة التي ابرزناها . ظاهرة تكتل الجماهير في صف الخارجين على القانون ، واعتبارهم ابطالا يستحقون الاعجاب والحماية والمساعدة !

ان استيحاء الشريعة الاسلامية سيحقق استجابة الناس للقانون اولا : لانه سيمنحهم عدالة اجتماعية كاملة ، ويقف في سبيل الطغاة والمستغلين ، وينشيء مجتمعا سليما من الآفات التي تفسد فطرة الناس، وتحرمهم الثقة، وتشيع فيهم القلق والسخط والتمرد . وثانيا : لانه سيتصل في نفوسهم بعقيدة قوية ، وتتفق روحه مع ارواحهم في الاعماق . وسيكون التعاون بين الجمهور والسلطات مستمدا من ان هذا التعاون لا يرضي السلطات الارضية وحدها ، ولكنه يرضي كذلك سلطان السماء ، ويحقق عدالة السماء .

ان القانون دائما يتضمن روادع وزواجر، ويحول بين الناس وبين الكثير من شهواتهم المستحبة ، المرتكزة الى ميولهم الفطرية ، فيجب لكي يطيعوه ويحترموه من قلوبهم ، ان يستند الى قوة اعمق في كيانهم . وقوة العقيدة كفيلة بأن تسنده وتؤيده ، حتى وهو يمنع عن الافراد ما يلذ لهم وما يطيب !

على ان الاسلام بما فيه من مراعاة لحاجات الفرد والجماعة، ومطالب الحياة المتجددة ، والمجتمعات المتحضرة ، يملك ان يلبي هذه الحاجات والمطالب في يسر ومرونة وسهولة .

ولكن ينبغي ان يكون واضحا اننا اذ نقول : ان الاسلام يملك ان يساير المجتمع المتحضر المتجدد .. لا نعني اخضاع الاسلام ومبادئه ونظمه لشهوات الجماهير العارضة ، ونزواتها الطارئة ، تملقا للجماهير ، باسم التحضر والتجديد ، على طريقة من يسمونهم « المسلمين العصريين » او الاقزام الذين يدعونهم في جيل

الاقزام « متحررين » !

لقــد فهمت الكنيسة في امريكا مــا يفهمه اولئك العصريون والمتحررون ، فاستحالت من هيكل عبادة الى ساحة رقص ، ومن قدس تطهر الى ساحة لذة .. ولست انسى ذلك « الاب » الذي انتهى من الصلاة والترتيل ، ليقود « ابناءه وبناته » الى ساحــة الرقص الملحقة بالكنيسة ، ووقف ينظر برضا اليهم واليهن ازواجا ازواجا متلاصقة تدور في الســاحــة عــلى انغام الموسيقى ، في ظل الانوار الحمر والصفر والزرق التي تلقــي ظــلال الرومانسيــة العنيفة، وتهيج الدم في عروقالشبــاب ! ثم تقدم الى «الجرامو فون» ليختــار « اسطــوانة » يرقص عليها ابناؤه وبناته تحت سمعه وبصره ، فاختار قطعة غزل جنسية صارخة ، تمثــل حوارا بين شاب وفتاة ، عائدين من السينما بعد منتصف الليل ، وهو يمسك بها في حجرته الدافئة ، ولا يطلقها لتعود الى اهلها لان الليلة باردة، وفي نهاية كل مقطع تتردد تلك الجملة :.But baby; it is cold outside

« يا صغيرتي انها باردة في الخارج ! »

كلا ! نحن لا نعني ذلك ابدا ، انمــا نعني صــورة من صور المجتمع تحقق مطالب العصر وتساير نموه ، وهي في ذات الوقت تخضع كل الخضوع لروح الاسلام النظيفة ، ومبادئه القوية ، التي تلبي ارقى صور الحضارة الصحيحة السليمة ، حضارة الانسان ، لا اباحية الحيوان .

حكم المشايخ والدراويش

هنــالك آخرون يتصورون ان حكم الاسلام ، معنــاه حكم المشايخ والدراويش ! من اين جاءوا بهذا التصور ؟ من الثقــافة السطحية الناقصة ، ومن ملابسات الواقع في هذا الجيل .. فاما الاسلام الحقيقي الصحيح ، فلا يعرف هذا الوضع ، لا في اصوله النظرية ، ولا في واقعه التاريخي .

حتى تلك الازياء الخاصة للمشايخ والدراويش .. انها ليست شيئا في الدين ، فليس هنالك زي اسلامي وزي غير اسلامي ، والاسلام لم يعين للناس لباسا ، فاللباس مسألة اقليمية ، ومجرد عادة تاريخية . ومحمد بن عبد الله لم يلبس جبة وقفطانا ، او قفطانا و « كاكولة » وانما لبس ثيابه العربية التي كان يلبسها قومه وجيله . كذلك لبس المسلمون في فارس ثيابهم الفارسية ، والمسلمون في مصر ثيابهم المصرية .

وعلام يتميز بعض المسلمين من بعض بلباس ؟ وليس في الاسلام رجال دين ، ولا هيئة « اكليروس » لا تقام الطقوس الدينية الا بوساطتها . والتفقه في الدين اجتهاد كالتفقه في الطب والهندسة والتجارة وسائر المعارف الانسانية الاخرى .

نعم قد توجد مناصب رسمية كمناصب القضاء ، ولكن الاسلام لا يعرف ان هناك قاضيا للاحوال الشخصية يحكم بالقانون الاسلامي ، وقاضيا للعقوبات والمدنيات يحكم بقانون غيره. الاسلام لا يعرف الا شريعة واحدة تنظم العقوبات والشؤون المدنية، كما تنظم احوال الزواج والطلاق والميراث ، وتخضع الجميع لفكرة كلية واحدة تصدر عنها هذه التفريعات في شتى نواحي النشاط الانساني . والذي يتولى القضاء في هذه النواحي جميعا او في ناحية واحدة منها — حسب تخصيص الدولة له — انما يتولاه باسم تفقهه في الشريعة كلها او بعضها . كما يتولى الطبيب عمله لتعلمه الطب العام او التخصص في فرع منه ، وكما يتولى المهندس عمله لتخصصه في الهندسة او فرع منها .. والقاضي ليس رجل دين في الاسلام . انما هو مسلم حذق فرعا من فروع المعرفة ، فأسند اليه العمل الذي يحسنه . ولكل امرىء ما يحسنه في الحياة .

والخدمة الدينية — كمجرد امامة الصلاة — ليست عملا يأجر الاسلام من يقوم به من بيت مال المسلمين ! ما لم تكن لهذا الامام

وظيفة اخرى يؤديها . كالقاء دروس في المسجد ، او القيام بادارته من الناحية النظامية لا التعبدية . فامامة المصلين ليست وقفا على شخص من المصلين . انما يؤمهم افضل الموجودين ، وتصح صلاتهم جماعة او فرادى الا في صلاة الجمعة خاصة ، ومن هذا البيان يتضح ان ليس في الاسلام « رجال دين » يخشى ان يتولوا الحكم اذا صار الحكم الى الاسلام .

ذلك من الوجهة النظرية ، فاما من وجهة الواقع التاريخي في الاسلام فان حذق الفقه الاسلامي لم يكن بذاته مرشحا للحكم ، وتولي الاعمال في القيادة والادارة وما اليها ، حتى في ازهى عصور الحكم الاسلامي الكامل . انما كان الحذق في كل حرفة هو المؤهل لها دون نظر الى درجة الفقه الديني لصاحبها ، ولا حتى الميزة الكبرى التي يعتبرها الاسلام اساسا للتفاضل بين الناس ، وهي التقوى .

كتب ابو بكر اعرف اصحاب رسول الله بروح الاسلام ، الى ابي عبيدة بن الجراح ، الذي كان يلقبه رسول الله « امين الامة » يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله بن ابي قحافة الى ابي عبيدة بن الجراح . سلام الله عليك . اما بعد ، فقد وليت خالدا قتال العدو في الشام ، فلا تخالفه واسمع له واطع ، فاني وليته عليك وانا اعلم انك خير منه وافضل دينا . ولكن ظننت ان له فطنة في الحرب ليست لك . اراد الله بنا وبك سبيل الرشاد » .

فالذين يخشون — لو حكم الاسلام — ان يبصروا فيروا على راس الجيش مثلا في المعركة ، او في مصلحة الكيمياء او الطب الشرعي ، او في وزارة الاشغال او المالية ، شيخا معطمطما ، او درويشا معمما لمجرد انه قرا كتب الفقه والسنة ، او حفظ المتون والحواشي والشروح ، او اتقن التراتيل الدينية ودلائل الخيرات . .

اولئك فليطمئنوا . فواقع الاسلام التاريخي ، كأصوله النظرية ، لا يعترف الا بالكفاية الخاصة في العمل الخاص . ولكل وجهة هو موليها .

ان حكم الاسلام لا يتحقق لأن في الحكم طائفة دينية ــ وليس في الاسلام كما ترى طائفة دينية ــ انما يتحقق لأن القانون الاسلامي ينفذ ، ولأن فكرة الاسلام تحكم ، ولان مبادئه ونظمه تحدد نوع الحكومة ، وشكل المجتمع . وهذا كل ما هناك .

فاما نوع الحكم الذي يحتمه الاسلام فهو الحكم الشوري . والقرآن ينص على هذا نصا : « وشاورهم في الامر » والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : « لو كنت مؤمرا احدا دون مشورة المؤمنين لامَّرت ابن ام عبد » فيقرر مبدأ الشورى في الحكم وفي الادارة تقريرا صريحا . لانه وهو النبي لا يملك أن يؤمر احدا دون مشورة المؤمنين .

فاما طريقة الشورى فلم يحددها الاسلام تحديدا معينا ، لانها مسألة نظامية ترجع الى حاجات كل عصر ، ووسائله وامكانياته في تحقيق المبدأ ، في كل مكان وفي كل زمان .

فحين كان اهل الراي الذي يمثل الشعب كله مجتمعين في المدينة حول النبي ــ وهم الصحابة ــ كان النبي يستشيرهم ــ فيما لا وحي فيه ولا نص بطبيعة الحال ــ ويترك لهم حرية القول والتصرف في شؤونهم الدنيوية ، لانهم اخبر بها . ومعنى دنيوية هنا انها لا تتعلق بحكم شرعي او اجتماعي ، وانما تمثل الخبرات العملية ، كفنون القتال ، وزراعة الارض ، وحماية الثمار ، وما اليها . وهي ما نستطيع ان نسميه في عصرنا الحاضر الشؤون العلمية البحتة والشؤون العملية التطبيقية .

فاما الشؤون التشريعية الخاصة بالانسان : روحه وعقله ، وعلاقاته بالناس وعلاقات الناس به ، والحدود بين حقه وواجبه . . الخ ، فتلك مسائل يرجع فيها الى النصوص والقياس ، اي الى

القوانين الاسلامية المحددة ، او المبادىء العامة والفكرة الكلية . وما يتفق معها فهو منها .

وقد ظلت الشورى مقصورة على المدينة ، ما ظلت المدينة تمثل اهل الراي ، فلما تغير الوضع شيئا توسع الخليفة الاول ابو بكر فاستشار اهل مكة في حرب الشام . اذ كانت المسألة عملية حربية خارج الحدود العربية كلها ، تعود آثارها على من في مكة كما تعود على من في المدينة .

فاذا انتهينا في هذا العصر الى ان يصبح راي الجماهير لا يمثله من يقيمون في القاهرة وحدها ، ولا الاسكندرية ، ولا اية مدينة من المدن ، فالطريقة اذن ان نستشير الجميع بالطريقة التي تكفل الحصول على آراء الجميع .. وهي مسألة نظامية تتعلق بالتنفيذ . اما المبدأ فهو مقرر في الاسلام تقريرا اصيلا واضحا . كل ما يحتمه الاسلام هو ازالة القيود التي تجعل الانتخاب غير ممثل لحقيقة الراي في الامة . فلا يكون الناخب تحت رحمة صاحب الارض او صاحب العمل او صاحب السلطان ، كما هو واقع الآن .

والحاكم في الاسلام يتلقى الحكم من مصدر واحد هو ارادة المحكومين . فالبيعة الاختيارية هي الطريق الوحيد لتلقي الحكم . والواقع التاريخي قام على هذا المبدأ . فخلافة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي قامت على اساس الاختيار المطلق . ولا يتعارض هذا مع وصية عمر ان تكون في واحد من ستة فقد كانت هذه نصيحة للمسلمين ، ولم تكن امرا واجب الطاعة . ولو اختار المسلمون واحدا من غير الستة لاختاروا . ولكن هؤلاء كانوا بالاجماع اصلح الجميع ، فاختاروا واحدا منهم برضاهم واذنهم ، لا بأمر عمر ووصايته .

ولما عدل بنو امية عن هذه القاعدة الاسلامية الاساسية في الحكم ، رده اليها الخليفة الراشد الخامس عمر بن عبد العزيز .

رده الى الامة التي يجب ان تختار حكامها حرة طائعة مختارة .

صعد المنبر فقال :

« ايها الناس : اني قد ابتليت بهذا الامر عن غير راي كان مني فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين . واني قد خلعت ما في اعناقكم من بيعتي . فاختاروا لانفسكم » .

فقال الناس : قد اخترناك يا امير المؤمنين ، ورضيناك . فل الامر باليمن والبركة .

وبذلك رد الامر الى نصابه في ولاية الامر . فلا ولاية بغير شورى ورضى وقبول .

والحاكم الاسلامي يتلقى طاعته بعد توليه من قيامه على تنفيذ الشريعة الاسلامية ، لا من اي اعتبار آخر . وذلك عهده مع المحكومين . فاذا لم ينفذ الشريعة فقد سقطت طاعته عليهم . يقول صاحب هذا الدين : « اسمعوا واطيعوا ، وان استعمل عليكم عبد حبشي كان راسه زبيبة ـ ما اقام فيكم كتاب الله تعالى » وواضح في هذا الحديث توقيت السمع والطاعة باقامة كتاب الله تعالى ، فليست هي الطاعة المطلقة لارادة الحاكم ، وليست هي الطاعة الدائمة ولو ترك شريعة الله ورسوله .

بهذا وحده يقوم الحكم الاسلامي ، لا بوجود طائفة معينة في الحكم من المشايخ والدراويش كما يتصور الكثيرون .

ذلك كذلك من ناحية الاسس الدينية .. ثم احب بعدها ان اطمئن الخائفين من حكم الاسلام ان يجيئهم بالمهابيل والدراويش في الدواوين ! احب ان أطمئنهم الى ان نوعا من انواع الحكم لن يطارد هؤلاء كما يطاردهم الاسلام !

ان حكم الاسلام يعد هذه الطوائف ـ في اوضاعها الحالية ـ متبطلة متعطلة ، لا تنتج شيئا وهي قادرة على الانتاج . فسيجند هذه الجموع للعمل المنتج ، لتاتي للامة بشيء يعينها على الحياة .

ان حكم الاسلام لن يدع الدراويش يتدروشون ، ولا مشايخ الطرق يعيشون على النذور .. ان الاسلام يطلب الى كل فرد ان يعمل عملا لياجره عليه اجرا . فلا اجر بلا جهـد ، ولا جزاء بلا عمل . والصلوات والدعـوات مبـادة شخصيـة وليست عمـلا اجتماعيا ، اما اقامة الاذكار وتلاوة الاوراد ، فتلك اشياء تعرفها عصور التبطل ، ولا تعرفها عصور الحياة والنشاط .

ان العهـود الاقطاعية هي التي ترزق المشايـخ المتبطلين ، والدراويش المهبولين ، وتخلـع عليهم وتعترف بوجودهم .. لان هذه كلها اجهزة لتخدير الجماهير عما هي فيه من حرمان وشقاء . فاما حكم الاسلام الذي يكافح الاقطاع ، ويرد عن الناس الاستغلال، فليس في حاجة الى هذه الاجهزة . فسيوجه هذه الجموع المتعطلة المتبطلة لتعمل ، وسيهيىء لها مرافق العمل ، لانه سيعمل للجميع، وسيأخذ من القادر للعاجز ، وسيجمع من الضرائب وغير الضرائب ما يحتاج اليه المجتمع بلا تحرج من مس الاغنياء الا بقفاز الحرير ، وسينفق ما يجمعه لمصلحة المجتمع كله لا لحساب المحظوظين دون المنبوذين .

وعندئذ لن يكون المشايخ المتعطلون ، والدراويش المتبطلون ، هم سادة عهده ، بل سيكونون طريديه ، ان لم يغيّروا ما بانفسهم، ويبدّلوا وسائل كسبهم ، ويعملوا مع العـاملين في حقل الانتـاج المثمر ، حقل الحياة .

طغيان الحكم

ويجزع الكثيرون من المفكرين ورجال الفنون من حكم الاسلام ان ينصب لهم المشانق او يحرقهم بالنار او يلقـي بهم في ظلمـات السجون !

لماذا ؟ لأن الحكومة الدينية من طبيعتها الاستبداد والظلم ، وخنق الحريات وكتم الانفاس ، وضيق الافق وجمود التفكير..!

ومن اين جاءت هذه الصورة البائسة النكدة لحكم الاسلام وحكومة الاسلام ايها المفكرون المثقفون ؟ انها جاءت من محـاكم التفتيش في عصور الظلمات ، تلك التي حرقت العلماء ، وقتلتهم بالخوازيق والقت بهم الى الحيات والثعابين . كمـا جـاءت من الحكومات القائمة اليوم باسم الدين في بعض بلاد المسلمين .

ولكن واحدة من هذه الحكومات ليست من الاسلام في شيء. وهي لا تعتمد عـلى الاسلام ، انمـا تعتمد عـلى الجهل الفاشي ، والانحطاط العقلي ، والتاخر الفكري ، في البلاد التي قامت بها في القديم،او الحديث .

اعط هذه الشعوب الخاضعة للاستبداد علما ورقيا ونورا ، ومعرفة بالدين .. تسقط عنها هذه الغشاوة ، وتدرك ان الاسلام في صفها على الحاكمين المستبدين ، وليس في صف هؤلاء الحاكمين.

افاذا ادعى الحاكم المستبد انه يستبد باسم الدين كان ذلك تهمة لهذا النوع من الحكم يوجب اقصاءه عن الحياة ؟ اذن فمـا الراي في الحكم الديمقراطي الذي تحكم اليوم باسمه مصر والعراق والاردن ، وكلها تحكم ــ والحمد لله ــ حكما ديمقراطيا دستوريا برلمانيا على آخر طراز في الدساتير !

اهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ؟ وجهاز الدولة كله يعمل لحساب الراسمالية ، وهذه الملايين جائعة عارية مريضة مستغلة ، ولا حامي لها ولا نصير ؟

اهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ؟ و «نفر البوليس» يملك ان يتهم اي فرد في عرض الطريق انه ارتكب جريمة ما ، ثم يقبض عليه ويصفعه ويركله ويشتمه ، ويجرجره في الوحل اذا تابى عليه، حتى يذهب به الى قسم البوليس ، ليحرر له محضرا . وكل ذلك قبل ان يعرض على النيابة ، وقبل ان يقدم الى القضاء ، وقبل ان يتقرر اذا كان مجرما او بريئا من المحاكمة بعد التحقيق !

اهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ، تلك التي يقع فيها مـا

يرويه رجل كالاستاذ المجاهد محمد علي الطاهر في كتابه الجامع « معتقل هاكستب » يقول :

« وقد بلغ الذعر بوالدة « علي عمار » الطالب بكلية الحقوق بجامعة فاروق الاول احد المعتقلين وشقيقاته البنات أن اختبأن تحت السراير هربا من نيران البنادق السريعة الطلقات فقلبت السراير وصرخ قائد القوات فيهن فانعقدت السنتهن .

« ودام البحث ثلاث ساعات عبثت فيها الايدي بكل مقدس وعزيز كخلع البلاط وكسر الدواليب وتمزيق المراتب والاغطية ، ويتحول المنزل بهمة رجال البوليس السياسي الى نخالة امام اعين الاطفال والنساء والشيوخ .

« ويساق رجال الاسرة باكملها الى المعتقل ضربا بالعصي والسياط في جميع اجزاء الجسم ، من باب المنزل الى بابالمعتقل.

« وعادت النساء الى الام المشدوهة المتطلعة الى وليدها وابيه واشقائه وهم يجلدون أمامها، فوجدن المسكينة قد اصيبت بالشلل لا تتكلم ، وما زالت حتى الآن .

« وقد اثبت الطبيب الشرعي في تقريره الذي قدمه الى القضاء العادل ان علي عمار الطالب بكلية الحقوق بجامعة فاروق والمتهم في الجناية العسكرية قد نزعت اظافره » !

أهذه ديمقراطية دستورية برلمانية ، تلك التي يقف متهم فيها امام المحكمة يروي ما نشرته احدى الصحف اليوميه الكبرى في مصر على النحو التالي :

« ثم جيء بعبد الفتاح ثروت وهو المتهم الثالث في قضية الاعتداء على الاستاذ حامد جودة واجلسته المحكمة على مقعد .

« واجاب بناء على مناقشة الاستاذ حسن العشماوي بانه لم يعترف بأي شيء في التحقيق ، وان التعذيب جعله فاقد الشعور.

« وروى بصوت مرتعش ضعيف صنوف التعذيب فقال : ان اللواء طلعت بك هدده بالتشريح اذا لم يعترف ، قائلا : ان البلد في احكام عسكرية .

واستطرد يقول : واخذوني الى غرفة مع الضابطين العشري وفاروق كمال ، وجردوني من ملابسي ونزلوا في ضرب من تسعة مساء الى اربعة صباحا .

« ولقد قسموا انفسهم اربع مجموعات كل مجموعة من ١٢ عسكريا وضابطا . ووضعوا رجلي في الفلكة واستمر الضرب حتى أن الفلكة انكسرت .

« ثم استعملوا كرابيج الهجانة . ولما أفقت من اغمائي قال لي طلعت بك : هذه هي الجولة الاولى والبقية تأتي .

« واخذوني الى ابراهيم عبد الهادي باشا فقال لي : انا عندي امر اني اموتك . ثم أمر بموالاة تعذيبي .

« وكان التعذيب على اربع درجات بالضرب بالعصي والكرابيج ثم الكي بالنيران . واحضروا سيخ حديد محمي ، ولكن الضابط محمود طلعت طلب من الضباط أن يكفوا عني قائلا : ده صاحبي وسيعترف بكل شيء .

« ثم نمت على الاسفلت فكانوا يطرقون البـاب حتى يهرب النوم من عيني ، وما كانوا في حاجة الى ذلك لأنني لم أكن أستطيع الرقاد على أي جزء من جسمي المشوي كله .

« ثم طالبوني بالاعتراف وهددوني ان لم أفعل ان يعتدوا علي اعتداء منكرا ، وفعلا تقدم واحد يريد الاعتداء علي ، فقلت له : انا اعرف انني لا استطيع مقاومتك وانت يمكنك ان تفعل معي هذه الجريمة ، ويمكنك ان تنجو من عقاب القانون ، ولكني اريد ان اقول لك قبل ان تبدأ : ان الله لن يترك هـذه الجريمـة بلا حساب . فابتعد عني .

« وظل تعذيبي . وتلفت أعصابي .. وكنت لما اذهب الى اسماعيل عوض بك واشكو له يضرب الجرس ويأتي الحرس فيقول لهم : هاتوه لي أخرس خالص !

« وجاءني ابراهيم عبد الهادي باشا ٤ مرات وقال لي انا ابهدلك وابهدل اهلك وانا الحاكم العسكري .

« كما جاء النائب العام محمود منصور باشا فلما تقدمت له شاكيا قال انا عارف كل حاجة . وتركني .

« ان من الغريب حقا انني حينما حضرت اليوم لأداء الشهادة وجدت بعض رجال البوليس معهودا اليهم المحافظة على الامن . وكنت اعتقد انهم الآن امام المحكمة لمعاقبتهم على ما ارتكبوه من آثام .

« الرئيس : هل طلبوا منك اقوالا معينة ؟

« ــ نعم . أن أقول : انني اعرف مالك وعاطف وانني مشترك في الاعتداء على حامد جوده .

« وما كاد المتهم ينتهي من هذه العبارة حتى ارتجف بدنه وحملق في الهواء واصيب بنوبة عصبية اغمائية . وجعل يرسل شهيقا عصبيا مؤلما أبكى معظم الحاضرين في القاعة .

« وبادر رجال البوليس برش الماء على وجهه كما خف اليه طبيب من الموجودين وحملوه الى الخارج .

« وطلب الاستاذ مختار عبد العليم اثبات ذلك في محضر الجلسة فوافقت المحكمة ، واضاف الرئيس ان يثبت ايضا ان النوبة طالت مدة طويلة » !

فاذا كان هذا كله ، وكثير غيره مما ترويه قصة كل متهم سياسي في تاريخ مصر الحديث قد وقع ، فهل الديمقراطية الدستورية البرلمانية هي التي انتجته ، وهي المسؤولة عنه ، وهي

التي يجب ان تقصى عن الحكم ، لانه في ظلها ترتكب هذه المنكرات، كما يقال : انها ارتكبت وترتكب في العصور المظلمة وفي بعض البلاد المعاصرة باسم الاسلام ؟

ان المرجع في الحكم على نظام ما يجب ان يكون هو قواعده واصوله . فاما حين تخالف هذه القواعد والاصول ، بسبب الجهل او الانحطاط ، او اية عوامل اخرى ، فالذي يجب ان يقوله المخلصون للحق في هذه الحالة : ان اصول هذا الحكم ليست مرعية . وانه يجب ان يرجع الى هذه الاصول والدعوة الى هذه الرجعة تكون اذن قوية لأنها ترتكن الى أصل معترف به ، ولكنه مهمل في التطبيق .

لقد كان اقصاء الاسلام عن الحكم يكون مقبولا ، لو كان الخائفون من الاستبداد في ظله ، او المغرضون الذين يخوّفون من هذا الاستبداد ، يقولون ان طبيعة الاسلام تدعو الى الاستبداد من الحاكم ، أو تدعو المحكومين الى الرضى والخنوع !

ولكن الاسلام هو هو الدين الذي قرر للمجتمع نظاما لا سيد فيه ولا مسود ، ولا اشراف فيه ولا عبيد ـ نظاما يجعل ابا بكر وعمر ـ اكبر صاحبين لرسول الاسلام ـ تحت امرة مولى من الموالي وقيادته ، فلا يرى احد في هذا شيئا ولا يريان . نظاما يدع ابن الرجل من عامة الشعب في مصر يضرب « ابن الاكرمين » ، ابن حاكم مصر عمرو بن العاص ، بامر الخليفة وامام الجموع . نظاما ينذر من يقبلون الاستضعاف والذل بالعذاب الاليم : « الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي انفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين في الارض ! قالوا : الم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فاولئك ماواهم جهنم وساءت مصيرا » ويحرضهم على القتال لحقهم : « ومن قتل دون مظلمته فهو شهيد » وينذرهم لو سكتوا عن الحاكم الظالم فلم يغيروا عليه : « من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا لعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالاثم والعدوان ، فلم يغير عليه بفعل ولا قول ، كان على الله ان يدخله مدخله » .

افهذا هو النظام الذي يشفق المشفقون ان يؤدي الى استبداد الحكام واستسلام المحكومين ؟ ام هو التمحل والتضليل ؟

بقي الخوف من ضيق آفاق القائمين على الحكم الاسلامي وجمود تفكيرهم . وما أحسب هذه الصورة قامت في اذهان هؤلاء الرفاق ، الا من اقتران حكم الاسلام بعمائم الشيوخ ومسابح الدراويش !

فاذا تبين ان هؤلاء لن يكونوا اسناد حكم الاسلام في مصر ، بل طرداءه ، ما لم يغيروا ما بأنفسهم ، ويعملوا عملا منتجا غير مجرد الصلوات والاذكار والتراتيل . اذا تبين هذا فيجب ان تختفي هذه الصورة النكدة لحكم الاسلام ، ما لم تكن التهمة موجهة لمبادىء الاسلام في ذاتها لا للمشايخ والدراويش . فهل انه لكذلك ذلك الدين العظيم ؟

ان احدا لم يجرؤ الى اليوم ان يتهم هذا الدين ذاته بضيق الافق والجمود ، وهو يعرف عنه شيئا يسمح له بالحديث في الموضوع . فاما الذين يخوضون فيما لا يعرفون ، فهم لا يستحقون الاحترام ، لأنهم لا يحترمون ابسط قواعد الجدل والحديث .

ان هذا الدين لا يدخل نفسه ابدا في الشؤون العلمية البحتة، ولا العلوم التطبيقية المحضة ، باعتبارها من امور الدنيا . و«انتم امرف بشؤون دنياكم » قاعدة اساسية فيه . وعندئذ يخرج نفسه نهائيا من الميدان الذي حشرت الكنيسة نفسها فيه في القرون الوسطى ، فحرقت العلماء وسجنتهم لأنهم يتحدثون في العلم، وهي تحشر نفسها فيه !

فاما شؤون الاجتماع وشؤون العبادات ، وسائر ما يتعلق بروح الانسان وفكره ، فكل ما لم يحلل حراما منصوصا عليه نصا صريحا ، او يحرم حلالا منصوصا عليه نصا صريحا ، فهو راي يحتمل الصواب والخطا ، ويجادل صاحبه بالحسنى ، ويحميه الاسلام ان يصيبه الاذى ، الا ان يكون كفرا صراحا بواحا، لا يحتمل الشك ولا التاويل .

فاما الحدود الاسلاميــة فتلك شيء آخر . شيء يدخل في دائرة الجرائم الاجتماعية التي تصان بها حرمة المجتمع وكرامتــه ومصلحته . فاذا خطر لاحد أن يرميها بالقسوة ، وأن يتحدث عنها باسم المدنية والهمجية فذلك شأن آخر . لنا فيه حديث .

ان هذه الحدود كقطع يد السارق ، ورجم الزاني المحصن او جلده ، وجلد غير المحصن ، وجلد السكير .. قد تبدو قاسية عند النظرة الاولى وعند من لم يدرس فكرة هــذا الدين الكليــة وقواعده العامة جملة .

ان الاسلام لا يقيم هذه الحدود على مرتكبي تلك الجرائم الا بعد ان لا يكون لهم عذر ما في ارتكابها ، ولا شبهة في وقوعها .

انه يقطع يد السارق ، الذي لم يسرق اضطرارا ليطعم نفسه او يطعم اهله ، فاذا كانت هنــالك مبررات اجتمــاعية او فردية تضطر الى هذه الفعلة فلا عقوبة ، بل ربما عاد بالعقوبة على مــن دفع المجرم الى ارتكاب جريمته ! وهكذا فعل عمر مع غلمان سرقوا ناقة . فلما علم انهم سرقوا لان سيدهم لا يعطيهم الكفــاية مــن الطعام ، اطلقهم وغرم السيد ثمن هذه الناقة ضعفين . ولما كــان الجوع في عام الرمادة عطل حد السرقة .

وانه يرجم الزاني الذي يضبطه الشهود في حالة تلبس كامل او يجلده ، في الوقت الذي لا يبيح لاحد ان يتسور على احد داره او يتجسس عليه . فالزاني الذي يضبطه الشهود اذن لا يرتكب هذه الفاحشة في خفية ، بل في مكان يستطيع الشهود ان يضبطوه فيه ، فهو اذن مجرم فاحش متبجح ، ينشر الفاحشة ويشيعها ، والله يكره هذا ويمقته : « ان الذين يحبون ان تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب اليم في الدنيا والآخرة » .

فاما الذين يرتكبون هذه الفاحشة متسترين ، ثم يعترفون طلبا للتكفير ، فالاسلام يرأف بهم رافة شديدة ، ويحاول ان يتلمس

لهم الشبهات ، كي يعفي هذه الضمائر المتحرجة المتطهرة من العقاب .

والذي يرجح أن هذه العقوبة مراعى في تشديدها ، فكرة نشر الفاحشة ، أن عقوبة الجلد ، توقع على فريق آخر : فريق الذين يشيعون الفاحشة بنشر الاشاعات والأراجيف حول أعراض المؤمنات الطاهرات :

« والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء ، فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة ابدا ، واولئك هم الفاسقون » .

كذلك الحال في حد شارب الخمر . فهو يجلد اذا ضبط شاربا . فاذا كان في خفية ، لم يره احد ، فليس لأحد ان يتسوّر عليه بيته او يتجسس . فاما ذلك المستهتر الذي يجهر بالمعصية، فمن حق المجتمع ان يقي نفسه من نشر المثل السيىء في جوانبه ، ومن حقه اذن أن يعاقبه . فاما حين يتستر ولا يتبجح فذلك حسابه مع ضميره ومع خالقه . وتلك مسألة اخرى ، يتولاها الاسلام بايقاظ الضمير لا بالعقوبة .

ونستعير هنا رايا للاستاذ محمد قطب سجله في كتابه : «الانسان بين المادية والاسلام» عن العقوبات الاسلامية ، خلاصته : ان الاسلام يمنع أولا كل الاسباب التي تضطر الفرد الى ارتكاب الجريمة ، ويعالجها علاج وقاية قبل وقوعها ، وبذلك لا يبقى لمرتكبها عذر في ارتكابها ، الا متبجحا مستهترا مختارا ، وحينئذ لا تكون العقوبة قاسية مهما بدت قاسية ، لأن الاسلام لا يتلمس الاسباب ولا يتربص الدوائر ، بل يقي . فاذا لم تنفع الوقاية ، فالعلاج اذن ضروري لا محالة (١) .

ذلك واضح . فاما الذين في قلوبهم مرض ، فيعدون هذه

---

(١) يراجع فصل الجريمة والعقاب في كتاب « الانسان بين المادية والاسلام»

الاحتياطات في حدود الاسلام دلالة على عدم جديتها ! وهي جهالة تافهة ، تاخذ الاشياء من سطوحها في عجلة مستهترة تنافي كرامة العلم ، ووقار البحث ، والجد الضروري في تناول مثل هذه الامور .

... وبعد ! فليطمئن المخلصون من المفكرين ورجال الفنون ومن اليهم ان حكم الاسلام لن يسلمهم الى المشانق والسجون ! ولن يكبت أفكارهم ، ويحطم اقلامهم ، وينبذهم من حمايته ورعايته ، ولا ياخذوا الصيحات التافهة التي يصيحها اليوم رجال الدين المحترفون في وجه بعض الكتب وبعض الافكار حجة !! فانما هذه الصيحات تجارة رابحة اليوم ، وحرفة كاسبة ، لأنهم يعيشون في عهد الاقطاع الذي يقيمهم حراسا لمظالمه وجرائمه ، ولكي يبرروا وجودهم في اعين الجماهير يطلقون هذه الصيحات الفارغة بين الحين والحين .

فاما حين يكون الحكم للاسلام ، فلن يبقى لهؤلاء عمل ، فسيكونون يومئذ مجندين لعمل منتج نافع ، هم وبقية المتعطلين المتسكعين من كبار الملاك ورجال الاموال، ومن الموظفين والمستخدمين في الدواوين ، ومن أحلاس المقاهي والمواخير والحانات ، ومن المشرّدين في الشوارع والطرقات ، أو المصطلين للشمس حول الاجران .. وكلهم في التبطل والتسكع سواء. بعضهم كاره مضطر، وبعضهم كسول خامل ، وبعضهم مستغل مستهتر .

وحين تندفع الجموع في تيار العمل النشيط ، لن تكون هناك جرائم تقام عليها الحدود الا في القليل النادر ، وفي حالات الشذوذ، الذي لا بد منه في المجتمعات .

غموض النصوص

بعض الابرياء الجهلاء يصدق ما يشيعه المغرضون من غموض النصوص في الشريعة الاسلامية ، لان بعض هؤلاء المغرضين

يتسمون باسم العلماء ، فتنشأ في نفوسهم شبهة في ان قبول النصوص للتأويل ،سيحيلهم الى عماية ومتاهة ، فلا يجدون اصول القانون الذي يحكمهم واضحة معروفة .

والجهل بهذا الدين هو الذي يبقي على مثل هذه الشبهة في النفوس ، والتفسيرات والحواشي والشروح التي عكف عليها الازهر في وقت جموده ، والتي ما يزال يعيش عليها ، دون الرجوع الى المنابع الاولى الواضحة البسيطة ، يجعل للجهلاء بالدين عذرا. فاين هم وهذه المتاهة الواسعة في الحواشي والشروح ؟!

وثمة اصل آخر لهذه الشبهة لا يعرفه الابرياء الجهلاء ، ولكن يتخذه بعض المغرضين وسيلة للتخويف .. هو شمول المبادىء الاسلامية وسعة اصولها . وبدلا من ان تكون هذه مزية تحمد ، فانهم يجعلونها خطرا يخشى ..

ان الاصول الاسلامية ليست هي هذه الشروح والحواشي التي يتدارسها الازهر ، ليقتل بها شباب طلابه ، ويأكل اعمارهم ، ليخرجوا منها باقوال متعارضة ، وجدل عقيم . ولقد كتبت قبل اليوم كتابا كاملا عن « العدالة الاجتماعية في الاسلام » في نحو ثلثمائة صفحة وكتابا آخر عن « السلام العالمي والاسلام » في نحو مئتي صفحة ، فلم اجد انني بحاجة الى الرجوع الى شيء من كتب الحواشي ، لان الينابيع الاصيلة في الاسلام في الكتاب والسنة والسيرة والتاريخ ، كانت كافية لي لاخراج هذين البحثين ولاخراج سواهما مما سيجيء .

والمذاهب الاربعة الكبرى في الاسلام كان مصدر كل ما فيها من احكام وتشريعات هو الكتاب والسنة .. وهي مصادر ميسرة للكثيرين .

نعم قد تختلف الآراء في الجزئيات والتطبيقات . ولكن كل نظرية تشريعية في العالم تختلف حولها الشروح . ويتجادل فيها الفقهاء القانونيون . ثم لا يدعو احد الى نبذ تلك النظريات

التشريعية ، لأن الشراح لم يجمعوا فيها على تفسير .

فاما سعة المبادىء وعمومها ، فذلك في غير الحدود ، اي في الشؤون العامة المتجددة مع الحياة . كتقرير مبدأ الشورى في الحكم ، وترك الطريقة التي تتم بها الشورى دون تحديد . كما ينص الدستور المصري الحاضر على ان تكون الحكومة برلمانية ، ثم يترك طريقة الانتخاب لقانون الانتخاب . وكتقرير مبدأ درء الحدود بالشبهات ، ثم ترك بيان الحالات التي يدرء فيها الحد عن المتهم، يصوغها القانون الذي يفسر هذه القاعدة ، او يحددها القاضي الذي يزاول النظر في الحادثة . وكتقرير مبدأ قتال الفئة الباغية من المتحاربين حتى تفيء الى امر الله ، وترك تحديد الحالات التي توصف بانها حالات بغي للمحكمين فيها . وذلك ما تصنعه هيئة الامم المتحدة اليوم في تقرير ان حالة ما تعد اعتداء ترده بقية الامم، حتى يفيء المعتدي الى امر القانون الدولي !

ان الحلال بيّن والحرام بيّن . اما الذين يتعمدون التأويل لأغراض غير التي يعنيها القانون ، فهم مستطيعون ذلك في كل وقت، وفي ظل اي قانون . وها نحن أولاء نرى كل وزارة تلي الحكم تجد للقانون تفسيرا وتأويلا ، وترتكب في ظله ما لم يخطر على بال واضعه . أيقال حينئذ ان هذه القوانين يجب ان تلغى ، لأن طاغية من الطغاة قد أوّلها تأويلا سيئا تقبله نصوصها او لا تقبله ؟ فما بال القانون الاسلامي وحده هو الذي يتهم عندما يؤوله الطغاة تلك التأويلات ؟

انها شبهة ظالمة في الواقع لا تنهض على أساس سليم .

الحريم !!!

هنالك شبهة قوية لصقت بهذا الدين ، وهي بعيدة عن روحه وتعاليمه ، بعدها عن الواقع التاريخي فيه .. شبهة « الحريم » !

ان «الحرملك» و « السلاملك » لفظان تركيان ، يشيران الى

نشاة ذلك النظام في العالم الاسلامي . وما اظن احدا يتهم الاتراك بانهم فهمة للاسلام ، ولا كانوا من الصحابة ولا التابعين !

لقد كانت وثبة الاسلام بالمراة وثبة ثورية بالقياس الى العصر، وما تزال الى اليوم خطوة انسانية كريمة ، لم تزد عليها الحضارة الغربية الا حرية الاستهتار !

ان الكثيرات يخشين لو عاد الاسلام الى الحكم ان يردهن رقيقا ، او ان يحبسهن في الحريم . وهي خشية لا اساس لها ، ولا يعرف الاسلام منشاها . والذي نعلمه ونؤكده ان المراة الفاضلة ليس لها ان تخشى من الاسلام وحكمه شيئا ، فقد منحها الاسلام من الحرية الواسعة الكريمة ما هو حسب اي انسان فاضل شريف للعمل المثمر في حياة المجتمع .

منحها حق الملك والكسب بالطرق المشروعة ، ومنحها حرية تزويج نفسها ممن تشاء بلا ضغط ولا ارغام ، ومنحها حق الخروج والدخول في ثياب محتشمة ، لا تثير الشهوات ولا تجعلها نهبا للنزوات .

نعم . انه منعها ان تخرج للناس بثياب السهرة ! او ان توزع النظرات الغزلة ، والضحكات الفاجرة .. فمن كانت لا تعرف الحرية الا هكذا ، فلتخش الاسلام وحكم الاسلام !

فاما الذين يتحككون بحرية المراة ، ليتحككوا بالمراة ، من اصحاب الاقلام المائعة ، فاولئك يعرفون اهدافهم ، وتعرفها أوكار النساء التي ترحب بهم ، وتدعوهم الى حفلاتها الداعرة ، التي يتجرد فيها الانسان من كل مقوّمات الانسانية ، ليرتد حيوانا في غابة ، وينقلب الجنسان ذكرا وانثى .. وهذه الحفلات الداعرة لا يعرفها الاسلام .

لقد كان النساء في عهد محمد صاحب هذا الدين ، يذهبن الى المسجد للصلاة ، ويذهبن الى السوق للتجارة ، ويخرجن في

الغزوات لتشجيع الرجـال . فاذا جـاء عصر من عصور الظلم والاستبداد فاحال المراة سلعة، فقد احال ذلك العصر نفسه الرجال الى ارقاء .

انه ليس الاسلام الذي كان يامر السلاطين بالقاء الرجال في جب الحيات ، وكذلك لم يكن هو الذي يامر الرجال بالقاء النساء في « الحريم » انما كان ذلك ظلما شائما ذهب ضحيته الرجـال والنساء سواء .

كذلك ليست « الحرية » هي التي تكشف الافخاذ والنهود في الحفلات الساهرة اليوم . انما هي الدعارة الروحية تتزيا بزي الارستقراطية ، والعبودية للجسد تتزيا بزي الحرية .

فاذا جاء حكم الاسلام ، فسيرد للمراة حريتها الكريمة التي تنقذها من الرجعية التي لا تزال تسيطر في بعض الاوساط، والتي تنقذها كذلك من الاباحية التي خرجت من وسط «الارستقراطية».

انه سينقذ روح الانسانية المهينة في «الحريم» وفي «الصالون» سواء . فهي في الاولى مهينة بالكبت والظلم ، وهي في الثانية مهينة بالرخص والابتذال .

انه لا خوف من الاسلام على امراة فاضلة تزاول نشاطهـا الانساني في حدود الشرف والكرامة . فاما اللواتي لا يسعهن هذا المجال ، فلهن ان يخشين كل الخشية من حكم الاسلام (١) .

التعصب ضد الاقليات

بقيت شبهة اخيرة ، انا اكره الحديث فيها ، ولكن بعضهم يشير اليها تصريحا او تلميحا ، وبعضهم يتخذها تكاة وسببا لارضاء

(١) يراجع هذا الموضوع بتوسع في كتاب « السلام العالمي والاسلام » (فصل: سلام البيت)

غايات صغيرة ، وتحقيق منافع يسيرة .. تلك هي مسألة الاقليات في حكم الاسلام ، وقومية الحكم في ظل اسلامية التشريع .

انني احسب مجرد التخوف من حكم الاسلام على الاقليات القومية في بلاده نوعا من التجني الذي لا يليق ، فما من دين في العالم وما من حكم في الدنيا ، ضمن لهذه الاقليات حرياتها وكراماتها وحقوقها القومية ، كما صنع الاسلام في تاريخه الطويل. بل ما من حكم دلل الاقليات فيه كما دلل الاسلام من تقلهم ارضه من اقليات . لا الاقليات القومية التي تشارك شعوبه في الجنس واللغة والوطن ، بل الاقليات الاجنبية عنه وعن قومه .

وما كان جزاء الاسلام على عدله وحسن رعايته ، الا اضطهاد اتباعه في بلاد الاديان الاخرى ، وفي ظل جميع انواع الحكم ما عداه في القديم وفي الحديث سواء مما يجعل الحديث عن قومية الحكم لا اسلاميته ، حديثا بغيضا ، لا سند له من الحق ولا من الواقع ولا من التاريخ ، ولا من روح الانصاف التي يجب ان يتحلى بها المواطنون في كل بلاد الاسلام .

وساختار هنا عهدا من عهود الاسلام كان ينتظر ان يكون اشد العهود تعصبا وقسوة وفظاظة . اذ انه كان في العهود المظلمة، وكان القائمون عليه هم الاتراك . وسادع كاتبا مسيحيا اوروبيا يتحدث عنه في معاملته للاقليات غير المسلمة وللبلاد المفتوحة . وساكتفي بهذا المثال دون سواه ، لانه يبلغ فصل الخطاب في هذا المقام .

قال « سير ت. و. ارنولد » في كتابه « الدعوة الى الاسلام » ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، واسماعيل النحراوي ص ١٣٨ ــ ص ١٣٩

« ان المعاملة التي اظهرها الاباطرة العثمانيون للرعايا المسيحيين ــ على الاقل بعد ان غزوا بلاد اليونان بقرنين ــ لتدل على تسامح لم يكن مثله حتى ذلك الوقت معروفا في سائر اوروبا :

وان اصحاب كلفن Calvin في المجر وترنسلفانيا ، واصحاب مذهب التوحيد Unitarians من المسيحيين الذين كانوا في ترنسلفانيا ، طالما آثروا الخضوع للاتراك على الوقوع في ايدي اسرة هابسبورج المتعصبة ، ونظر البروتستانت في سيليزيا الى تركيا بعيون الرغبة، وتمنـوا بسرور ان يشتروا الحرية الدينيـة بالخضوع للحـكم الاسلامي . وحدث ان هرب اليهـود الاسبانيـون المضطهدون في جموع هـائلة ، فلم يلجأوا الا الى تركيـا . كذلك نرى القوزاق Cossaks الذين ينتمون الى فرقة المؤمنين القدماء Old Believers الذين اضطهدتهم كنيسة الدولة الروسية، قد وجدوا من التسامح في ممالك السلطان ما انكره عليهم اخوانهم في المسيحية . وربمـا يحق لمقاريوس بطريق انطاكية في القرن السابـع عشر أن يهنىء نفسه حين راى اعمال القسوة الفظيعة التي اوقعها البولنديون من الكاثوليـك Catholic Poles عـلى روسيي الكنيسة الشرقيـة الارثوذكسية ، قال مقاريوس : « اننا جميعا قد ذرفنا دمعا غزيرا على آلاف الشهداء الذين قتلوا في هذه الاعوام الاربعين او الخمسين على يد اولئك الاشقياء الزنادقة أعداء الدين. وربما كان عدد القتلى سبعين الفا او ثمانين الفا . فيا ايهـا الخونة ! يا مردة الرجس ! يا ايتها القلوب المتحجرة ! ماذا صنع الراهبات والنساء ؟ وما ذنب هؤلاء الفتيات والصبية والاطفال الصغار حتى تقتلوهم ؟ ولمـاذا اسميهم البولنديين الملعونين ؟ لانهم اظهروا انفسهم اشد انحطاطا واكثر شراسة من عباد الاصنام المفسدين ، وذلك بما اظهروه من قسوة في معاملة المسيحيين ، وهم يظنون بذلك انهم يمحون اسم الارثوذكس . ادام الله بقاء دولة الترك خالدة الى الابد . »

فماذا لقي المسلمون في مثل ذلك الزمان ، بل ماذا يلقون حتى الآن ؟ ان الجرائم الوحشية ترتكب ضدهم في الحبشة جارتنا، وفي الملايو تحت الحكم الانجليزي (١) وفي روسيا ويوغوسلافيا وسائر

---

(١) وأقرب الحوادث الى الاذهان حادث الفتـاة الهولاندية التي التقطتهـا سيدة مسلمة وهي طفلة شاردة فرعتها وربتها، فنشأت مسلمة وتزوجت من مسلم ..

البلاد الشيوعية التي يزعم المروجون لها هنا ، والمستغفلون من اخواننا ان لا علاقة لها بالاديان ، ولا عصبية فيها ضد الاسلام . وفي الهند التي هددنا سفيرها في مصر ، لأن سفيرنا بالباكستان قد نسبت اليه كلمة حق عن كشمير . لا بل ان هذه الجرائم الوحشية لترتكب ضدهم في عقر دارهم ، في الشمال الافريقي على يد فرنسا، وفي جنوب السودان على يد انجلترا ، وفي كل مكان يضع فيه الاستعمار قدمه حتى الآن !

ان كل ما يذكرونه ضد حكم الاسلام هو اصداء لبعض المذابح الارمنية على ايدي الترك المتأخرين . ولكن هذه المذابح لم تكن وليدة تعصب ديني ، بل كانت ذات طابع سياسي . فهذه العناصر كانت شوكة تستخدم دائما لوخز الدولة العثمانية في ابان ضعفها، وتحركها روسيا او اوروبا لأسباب سياسية ، ناشئة عن روح صليبية ، على ان ما وقع للارمن المسيحيين وقع مثله للعرب المسلمين في سورية ، في ظروف سياسية مشابهة . وقد قامت بهذه وتلك أرذل العناصر في الدولة العثمانية ، تلك العناصر التي هي بطبيعتها شغوفة بالدماء والقسوة والاجرام ، واستوى المسلمون وغير المسلمين في تلقي ويلاتها وآثامها في طول البلاد. وما كان هؤلاء فهمة للاسلام ولا لغير الاسلام !

ان الحكم حين يصير الى الاسلام ، سيسير على مبادئه السمحة الكريمة ، التي لا يملك انكارها احد . ولن يتغير على الاقليات شيء في اوضاعها ولا حقوقها التي تتمتع بها الآن .

وعلى الذين يتحدثون في هذا الموضوع أن يذكروا ان الولايات المتحدة الامريكية التسع والاربعين ، ليس فيها حاكم كاثوليكي واحد ، لمجرد ان الاغلبية هناك من البروتستانت . وكلاهما

ـ واذا بالدولة الانجليزية تجند جيشها لرد هذه الفتاة الى المسيحية ، وضرب مسلمي سنغافورة بالمدافع الرشاشة ! انها تدل على التسامح الديني الكامل ! التسامح الانجليزي والهولندي بطبيعة الحال !

مسيحي ، لا يختلف عن صاحبه الا في المذهب .

وعليهم ان يذكروا ان اضطهاد المسلمين في الحبشة قد بلغ الى حد استرقاق المدين المسلم الذي لا يوفي بدينه للمسيحي ، لمجرد ان الحكم للمسيحيين . ولو ان الاغلبية العددية هناك للمسلمين !

ما الذي يمكن ان يفتح به فمه انسان عن حكم الاسلام من ناحية الاقليات ؟ ان الحياء وحده يكفي ، وانني لأكره الحديث في هذا الموضوع ، فكل حديث فيه هو نوع من التجني القبيح لا يليق!

عداوات حول حكم الإسلام

لقد تحدثنا منذ لحظة الى الابرياء ، الذين تغيم الشبهات في نفوسهم حول حكم الاسلام ، فيتخوفون منه ويقلقـون ، لا لانهم يكرهونه ، ولكن لانهم يجهلونه ، ولقد كان من حقهم علينا ان نجلو لهم هذه الشبهات ، وان نرفع عن عيونهم هذه الغشاوات ، وان نجادلهم بالتي هي أحسن ، بوصفهم مجنيا عليهم بجهل هذا الدين لا جناة !

ان هؤلاء الا فريسة فريق آخر او فرق اخرى ، ليست في مثل براءتهم ، وليست في مثل غفلتهم ! انما تكيد للاسلام كيداً عن وعي وعن قصد ، وتصوره للابرياء الجاهلين هذا التصوير البشع المخيف لغاية ولغرض . ومن حق اولئك الابرياء الغافلين ان نكشف لهم هؤلاء الخبثاء الماكرين ، وان نطلعهم على ما خلف الستار من المكر السيء والغرض الدفين .

ان لحكم الاسلام اعداء كثيرين في الخارج وفي الداخل ، فيهم الدهاة الاقوياء ، وفيهم الهازيل والهابيل ، غير انهم يلتقون عند مصالح لهم مشتركة في اقصاء الاسلام عن الحكم في الحياة ، وهم يعارضون في رد الحكم الى الاسلام بحجج شتى ، وبمنطق مختلف ، وبنبرات ولحون متباينة يتالف منها جميعا دوي يخيل لمن يسمعه ، وهو لا يعرف مصادره أن هنالك شيئا ، وان وراءه حقا ! فلننظر اذن في شأن تلك العداوات .

عداوات الصليبيين

لقد انتهت المسيحية في اوروبا وامريكا الى ان تصبح راية قومية تتجمع تحتها جموعهم ، لا عقيدة دينية ــ كما هي طبيعة

المسيحية ــ وهم اذ يتنادون اليوم باسم حماية الحضارة المسيحية من هجوم الشيوعية عليها كما كانوا يتنادون ايام الفاشية والنازية، لا يقصدون العقيدة المسيحية كديانة ، بل يقصدون الامم المسيحية كاوطــان وقوميات . والمسيحيــة ليست الا ستارا يتخذونــه لاستجاشة حمية البلاد المسيحية جميعا ، وهذا ما يفسر الانحلال الخلقي والاجتماعي الذي يتزايد فيمحيط البلاد المسيحية ــ منافيا لكل تعاليم المسيحية ــ في الوقت الذي ترتفع فيــه الدعوة باسم الحضارة المسيحية !

وبهذا الوضع للمسالة لا تبدو هنــالك غرابة في الجمع بين التحلل من روح المسيحية في اوروبا وامريكا ، والخصومة والعداء لغير المسيحيين في البلاد الاخرى ! انه لا غرابة ولا لغز يحير الافهام، ولكنها اللعبة الماهرة مع المغفلين والسذج مناهلالديانات الاخرى، وبخاصة أهل الاسلام .. ان الغرب يوحي لهــؤلاء الغافلين ، ان الدين عامل ثانوي لا قيمة له في حياتهم ، مستشهدين بتحللهم من قيوده في مجتمعاتهم ، فينعق أصحــابنا بهذه الدعوة ، ويسيرون عليها ، ويخربون بيوتهم بايديهم لا بايدي اعدائهم الدهاة . ذلك بينما العالم الغربيكله ينصب للاسلام، ويكن له العداوة والبغضاء!

ان الحروب الصليبية لم تضع أوزارها الا في نفوس المسلمين وفي عالم المسلمين ، فاما في العالم المسيحي فهي مشبوبة الاوار ، وهي تشغل من اذهان القوم وسياستهم مكانا بارزا ، يبدو في شتى مناحي الحياة . ونحن بغفلة منقطعــة النظير نقــدم لهم العــون والمساعدة في هذه الحرب المشبوبة الاوار .

ان الصليبيين الاحياء لم ينسوا يوما ان بيت المقدس هــو البقعة التي ثارت من اجلها الحروب الصليبية ، وحينمــا دخل الماريشال « النبي » بيت المقدس في الحرب العظمى الماضية تحرك لسان الصليبية الكامنة في دمه وفي دم كل صليبي . تحرك لينفث اوار الصليبية الكامن : « الان انتهت الحروب الصليبية » !

وحين قضت السياسة الاستعمارية والواقع المادي ان تكون فلسطين للعرب ـ اهلها وسكانها ـ تحركت هـذه الصليبية مرة اخرى بفكرة الوطن القومي لليهود ، ثم انتهت الى المأساة الاخيرة على عين انجلترا وامريكا وبصرهما ، وبأسلحتهمـا واموالهمـا ـ تشترك معهما الشيوعية التي تطرد الدين من حسابها ، الا ان يكون هذا الدين هو الاسلام ، فهي تحاربه باسمها لا باسم الصليبية ، تحاربه لحسابها الخاص ولمصلحتها الخاصة ـ كما سيأتي ـ وقال المغفلون هنا : ان الدسائس الاستعمـارية والمصالح الشخصيـة وحدها هي التي تحرك انجلترا وامريكا . ذلك انهم لا يفطنون الى ان روح الصليبية كامن وراء السياسة الاستعمارية كذلك ، يذكي العوامل الظاهرة ويقويها .

وقد بقي بيت المقدس القديم وحده في ايد عربية ـ هي على كل حال مسلمة ! وهنا يجيء دور هيئة الامم ، لترد هذه البقعـة الى حكم الصليبيين مرة اخرى ! لا باسم الصليبية سافرا ، ولكن باسم « التدويل » وتجد من صراع الاقزام الدائر بين الدويلات العربية ، بل بين البيوت المالكة وحدها في هذه الدويلات ، مشجعا وناصرا . وتجد من ساسة الاقزام في هذه الدويلات البائسة ، من يعد ذلك سياسة قومية مرسومة !

ان الصليبيين يعرفون ويقول الصرحاء منهم ـ وقد سمعته في امريكا بأذني ـ ان الاسلام هو الدين الوحيد الخطر عليهم . فهم لا يخشون البوذية ولا الهندوكية ولا اليهودية ، اذ انها جميعـا ديانات قومية لا تريد الامتداد خارج اقوامها واهليهـا ، وهي في الوقت ذاته اقل من المسيحية رقيا . فامـا الاسلام فهو ـ كمـا يسمونه ـ دين متحرك زاحف . وهو يمتـد بنفسه وبلا اية قوة مساعدة . وهذا هو وجه الخطر فيه في نظرهم جميعا . ولهـذا يجب أن يحترسوا منه ، وان يقاوموه ويكافحوه .

ونحن الغافلين في الشرق لا ندرك ضخامة الجهود التبشيرية التي تبذلها اوروبا وامريكا لنشر المسيحية في ارجاء العالم كله ، في

مجاهله ومعموره سواء ، لا ندرك ان للكنيسة الكاثوليكية وحدها نحو أربعة آلاف بعثة تبشيرية ، تنتشر في انحاء الارض ، وتذهب الى مجاهل الكونغو والتيبت ووراءهـا الاموال الضخمة التي لا تنفد .

وهذه الجهود لا يقوم بها المبعوثون وحدهم ، بل تعتمد كل الاعتماد على الوطنيين في البلاد الاخرى ، وتتخذ لها طرقا وعنوانات شتى ، وتتزيا بأزياء كثيرة ليس الزي الديني الا واحدا منها . ففي مصر مثلا يعد رجل كجورجي زيدان منشىء دار الهلال ، ورجل كسلامة موسى الكـاتب الصحفي ، رسولين مهمين للتبشيرية ، يجدان في غفلة المصريين والشرقيين ـ بما في ذلك أصحاب الصحف والقراء ـ مجالا طيبا للعمل ، الذي لا تنهض به جمعيات تبشيرية كاملة ، باسم الثقافة والادب والصحافة !

والحكومات تشجع هذه البعثات وتؤيدها ، لأنها ترمي من وراء المسيحية الى اهداف سياسية واقتصادية ، وتعد المسيحية علما قوميا ينتشر ظله في هذه الاصقاع كما أسلفنا .

والدين الوحيد الذي يقف في وجه هذه الجهود ، هو الاسلام وحده كما تقول تقريراتهم ، وكمـا يفصح احيانا بعض الصرحـاء منهم !

وهؤلاء الصليبيون يعرفون ان الاسلام ليس شيئا آخر غير حكم الاسلام ، فهو لا يستطيع ان يتحقق كاملا وقويا في هـذه الارض بغير هذا الحكم ، الذي يحوّل العقيـدة شريعة ، ثم يقف ليحميها ويدفع عنها .

لذلك يحاربون رجعة الحكم الى الاسلام محاربة قوية لا هوادة فيها . يحاربونها بنفوذهم وبقوتهم ، كما يحاربونها بوساطة المغفلين منا ، وذوي المصالح الذين يخشون حكم الاسـلام عليها .

وعلى حين تنكر اوربا وامريكا على الاسلام ان يحكم في اية بقعة من بقاع الارض ، وأن تقوم على أساسه دولة تحمل لواءه ،

وتعمل بفكرته ، وتنفذ قوانينه . وعلى حين ينعق الناعقون هنــا وهنالك في الاقطار الاسلامية ممن استعمــرت اوربــا وامريكــا ارواحهم . . بأن الزمن قد مضى فلم يعد يحتمل قيام دولــة على اساس الدين . .

على حين هذا وذاك تنبت كالشوكة دولة اسرائيل ! ترتكــز على الدين ــ وعلى الدين وحده ــ فاليهودية ليست جنسية بل ديانة . تضم الروسي والالماني والبولنــدي والامريكــي والمصري واليمني . . . وكل من هب ودب على وجــه هــذه الارض مــن الاجناس . وعلى اليهودية وحدهــا ترتكــز اسرائيــل بتشجيع انجلترا ، وتمويل امريكا . فاما روسيا الشيوعية فلنضع حديثها في هذه المأساة على جنب ! فان نكيرها على الدين اشد ، وانكارها لقيام دولة على الدين اعنف . ولكن هذا كله يتبخر وتتبخر معــه مبادىء الشيوعية الاساسيــة ، عندمــا يطــل وجــه المصلحة الشخصيــة !

وما يلقاه الحكم الاسلامي من عنت الصليبية في مصر تجــد منه « الباكستان » اليوم مــا تجد في قضية كشمير مع الهند . والمغفلون هنا لا يفطنون الى انها الروح الصليبية التي تملي عــلى هذه الدول المسيحية سياستها ، فيحاولون ان يردوها الى اسباب اخرى !

ان اجهزة الدعاية الامريكية في الشرق هي التي تتولى الدعاية للهند ، باموال امريكية يظهر صداها في صحافة الشرق واضحا ! لماذا ؟ لان الهند ليست مسلمة ، ولان بينها وبين اول دولة مسلمة في الشرق نزاعا . والكثرة من الحاكمين في الدولة الامريكية تخرجوا في المعاهد التبشيرية . وهي حقيقة افضى الي بها احد الاساتذة الانجليز الذين التقيت بهم في امريكا ، وعدّ لي عشرات من الاسماء البارزة في وزارة الخارجية الامريكية وفي السلك السياسي ــ ولم يكن يفضي الي بهذه الحقيقة بريئا لوجه الله ! وانما هو ــ كمــا عرفت فيما بعد ــ احد رجال قلم المخابرات البريطاني الذين يهمهم

الا يثق الشرقيون كثيرا في نيات امريكا ! مما دعاني الى التشكك في بياناته لي فتحققتها بوسائل اخرى .

ان الاسلام لا يجوز ان يحكم .. هذه رغبة العالم الصليبي. وعلينا نحن ان نذعن . وان نصدق ما يوحي الينا به الصليبيون في الشرق والغرب ، في سذاجة وغفلة ، باسم التحرر والثقافة !

الا من للاقزام ، بمن يقنعهم انهم ليسوا بعد الا الاقزام ؟!

عداوات المستعمرين

يصعب الفصل بين عداء الصليبية للاسلام وعداء الاستعمار. فكلاهما يغذي الآخر ويسنده ويبرره . والاسلام عقيدة استعلاء تكافح الاستعمار حين تستيقظ في نفوس اصحابها ، ورجعة الحكم الى الاسلام توقظ هذه الروح بشدة ، فتفسد على الاستعمار خطة الاستغلال والاستذلال .

ان الاسلام يحرم على اتباعه ان يخضعوا لأي حكم اجنبي ، بل لأي تشريع لا يتفق مع شريعة الاسلام . وتلك عقبة في طريق الاستعمار كؤود . والمستعمرون ليسوا في غفلة مثقفينا الفضلاء ، ولا في بلاهة حكامنا النابغين ! انهم يقيمون استعمارهم على دراسات كاملة متشعبة لكل مقومات الشعوب التي يستعمرونها ، كي يقتلوا بذور المقاومة ، او يتفادوها او يداروها . وقد قام الاستشراق على هذا الاساس . قام ليساعد الاستعمار من الوجهة العلمية ، وليمد جذوره في التربة العقلية كذلك . ولكننا نحن هنا نعبد المستشرقين ببلاهة ، ونعتقد في سذاجة انهم رهبان العلم والمعرفة ، وانهم بعدوا عن نشأتهم الاولى ، وقطعوا صلتهم بالعلة التي نشأوا منها ! وبخاصة اذا موّه علينا بعضهم بكلمة طيبة تقال عن ديننا وعن نبينا ، كي تكون هي الطعم لتستنيم افكارنا الى الايحاء في ناحية اخرى !

وان الانسان ليضحك احيانا — ولو انه ضحك مر —

و « المثقفون ! » فينا يتعالمون بالحديث عن « الاخلاص العلمي » للمستشرقين . فاذا خطر لك ان تتشكك في براءة هؤلاء القديسين، فانت اذن غير مثقف ! او متعصب تحشر الدين في كل مجال !

ومرة اخرى نسأل : الا من للاقزام بمن يقنعهم انهم ليسوا بعد الا الاقزام ؟!

ولقد كان الانجليز يعرفون ان جيوش الاحتلال ستترك مصر يوما ما ، ان قريبا وان بعيدا . فلم يكن لهم بد من اسناد للاستعمار غير جيوش الاحتلال . فاقاموا هذه الاسناد في الميدان الاقتصادي لاحتلال الاسواق المصرية، ومحاولة اغلاق الاسواق العالمية الاخرى في وجه الحاصلات المصرية ، واقاموها في دنيا المال بتبعية نقدنا لنقدهم او لخزانتهم ... الخ.

ولكن هذه الاسناد كلها لم تكن لتقوى على البقاء ، لولا الاستعمار الروحي والفكري الذي عني به الاستعمار في خلال القرن الماضي ، وما يزال يوليه اكبر عناية في هذه الايام . لقد ذهب الانجليز البيض من الدواوين ليحل محلهم «الانجليز السمر» من المصريين المقربين ، المستعمرة ارواحهم وافكارهم ، المصنوعين على عين الاستعمار ، لاداء اغراض الاستعمار .. وكانت عناية الانجليز البيض شديدة بوزارة المعارف بوصفها المشرفة على تكوين الاجيال ، حتى اذا تركوها اليوم للانجليز السمر تركوها مطمئنين، فما تزال النظم والبرامج والكتب وطرائق التدريس كلها تعمل للاستعمار الروحي والفكري في نفوس الاجيال . وكلها ايحاءات بنبذ العنصر الديني ! وباقصاء الاسلام لا عن الحكم وحده بل عن الحياة جميعا .

لقد ربى الاحتلال اجيالا متعاقبة ، ما تزال تتكاثر بحكم العقلية المشرفة على وزارة المعارف ، تنظر الى الاسلام على انه بقية من بقايا التأخر والانحطاط ، وتعد التجرد منه تجردا من تهمة الجمود والجهل ، ودليلا على « الثقافة ! » والتحرر .

وبرامج التاريخ في المدرسة المصرية وكتبه على وجه خاص من امكر ما يستطيع الاستعمار ان يصنع ، ومن افتك ما يقتل الروح القومية والروح الدينية سواء ، فالطالب الشانوي — بل الجامعي — يخرج من دراسة التاريخ — بما في ذلك التاريخ الاسلامي — لا يعرف شيئا عن فكرة الاسلام الاجتماعية ، ونظرته الانسانية ، وكل ما يدرسه غزوات وحروب ، ووقائع واحداث . ينتهي منها الى ان الاسلام كان معركة حربية ، ولم يكن يوما ما معركة فكرية ولا اجتماعية ولا انسانية !

وساعد الاستعمار على تشويه الفكرة الاسلامية كلها عامل آخر . عامل لم يكن الاستعمار ليجد افتك منه ولا افعل في تشويه الاسلام . اولئك الذين اصطلح الناس على ان يسموهم رجال دين ، من الاشياخ والدراويش ، يمثلون جمود الفكر ، وضيق الافق ، او يمثلون الخرافة والجهالة ، ثم يصبغون ذلك كله بصبغة الدين ، فيظهرونه بشعا شائها منفرا . ثم يرتكبون في سلوكهم الشخصي والاجتماعي جرائم وموبقات شائنة ، فيذهبون بكرامة الدين وجديته واحترامه ، وبخاصة حين يشترون بآيات الله ثمنا قليلا ، فيناصرون الاستغلال والطغيان ، باسم الاسلام ، وباسم القرآن !

وبذلك تعاون التعليم الاستعماري القائم في وزارة المعارف باشراف مصنوعات الاحتلال المشرفة على البرامج والنظم والمناهج والكتب ، مع رجال الدين المزعومين ، على ان يبلغ الاحتلال غايته، وان يبلغ الاستعمار الروحي والفكري ذروته ، حتى بعد ذهاب الاحتلال !

وفي عناية الانجليز بوزارة المعارف نضرب مثالا قريبا حاضرا قد لا يلتفت اليه الكثيرون .

لقد كان الانجليز يعرفون ان في مصر رجلا اسمه الدكتور طه حسين . وكان الدكتور طه هو الدكتور طه الكاتب الاديب الاستاذ

الجامعي كما هو . لم يزد عليه الا ان اصبح يوما وزيرا للمعارف.

وكان الانجليز يعرفون ان ميول الرجل ـ حسب ثقافته ـ ميول فرنسية . فلما ان صارت اليه وزارة المعارف ، ادركوا ان هنالك خطرا على الثقافة الانجليزية قد يصيبها مع وجود هذا الوزير .

وهنا فقط تذكروا ان طه حسين اديب كبير، يستحق الدعوة الى انجلترا، والضيافة على الحكومة البريطانية، والمعهد البريطاني، والتكريم بالالقاب الجامعية من جامعات الانجليز . فقط عندما صار وزيرا للمعارف .

انه الاستعمار يخشى على حبائله في وزارة المعارف ان تنكشف او ان تتزعزع !

والاستعمار يقوم في وجه الحكم الاسلامي ، لغرض معلوم ومفهوم ، وهو منطقي مع نفسه ، فما يعقل وهو يحارب الاسلام عقيدة مستكنة ، ان يدع هذه العقيدة تستحيل شريعة ، ويدع قوتها الروحية تستحيل قوة مادية . والمستعمرون لا يجهلون جهالتنا ، ولا يغفلون غفلتنا عن دعوة القرآن القوية : « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ولا يغيب عن اذهانهم ان الحكم الاسلامي سيرد جهاز الدولة كله اسلاميا : جهازها الاقتصادي والحربي والتعليمي، كما سيصوغ المجتمع صياغة اسلامية ، وليس اخطر من ذلك كله على الاستعمار الظاهر والخفي سواء .

كذلك يدرك الاستعمار ان قيام حكم اسلامي سيرد الدولة الى عدالة في الحكم وعدالة في المال . فيقلم اظفار دكتاتورية الحكم واستبداد المال . والاستعمار يهمه دائما ان لا تحكم الشعوب نفسها ، لانه يعز عليه حينئذ اخضاعها ، فلا بد من طبقة دكتاتورية حاكمة ، تملك سلطات استبدادية ، وتملك ثروة قوية، هذه الطبقة هي التي يستطيع الاستعمار ان يتعامل معها ، لانها اولا قليلة العدد،

ولأنها ثانيا تستعين به على البقاء ، وتحتاج اليه ليسندها في وجه الجماهير . وهذه الطبقة تتولى اخضاع الجماهير وسياستها ، ويتوارى خلفها الاستعمار ، فلا يبرز دائما بوجهه السافر المثير .

ان هنالك حلفا طبيعيا بين الاستعمار ودكتاتورية الحكم والمال، كلاهما يعتمد على الآخر ، ويتبادل معه المصلحة . وكل ما يتمتع به المستعمرون في بلادهم من حرية وعدالة اجتماعية ، لا يسمحون بأن تستمتع به المستعمرات ومناطق النفوذ . لأن هذه المستعمرات ستواجههم وجها لوجه يوم تتخلص من مظالمها الاجتماعية. وكذلك المستغلون في الداخل لا يسمحون بانهاء مشكلات الاستعمار ، لأن الجماهير ستواجههم وجها لوجه يوم تتخلص من الاستعمار !

ولما كان الحكم الاسلامي الصحيح ، مظنة ان يحقق للشعوب عدالة مطلقة في الحكم وفي المال ، فان الاستعمار يحاربه حربا شعواء . يحاربه سافرا بنفسه ، ويحاربه متسترا وراء الاستار : استار الطغاة والمستغلين ، واستار « المتحررين المثقفين ! » واستار المشرفين على التعليم من حيث يشعرون او لا يشعرون !

لقد يسمح الاستعمار بقيام حكم اسلامي زائف ، في بقاع جاهلة من الارض متاخرة ، وفي ظل دكتاتوريات ظالمة مستغلة، كي يكون نموذجا سيئا منفرا من حكم الاسلام ، بل من ذات الاسلام !

هنا ينعق الناعقون من المغفلين والمغرضين ، والاقزام الذين يريدون ان يبدوا شيئا مذكورا . انظروا ها هو ذا حكم الاسلام ! أفما ترونه مستبدا ظالما غاشما ، مستهترا شهوانيا فاجرا، متأخرا منحطا جامدا .. هذا هو النموذج الحي لحكم الاسلام ، وهو النموذج الدائم لكل حكم ديني على ظهر الارض كائنا ما كان !

ويفرك الاقزام ايديهم من الفرح ، والجماهير البلهاء تتحلق حولهم بسذاجة ، والمستغلون يضحكون من الاقزام والجماهير ، ويطمئنون الى ان حكم الاسلام عنهم بعيد. والمستعمرون يضحكون من هؤلاء وهؤلاء جميعا . وهم يتصايحون كلهم داخل المصيدة ، ويتصارعون كما تتصارع الفئران الهزيلة البائسة في مصيدة الفئران !

عداوات المستغلين والطغاة

سلفت الاشارة الى ما بين حكم الاسلام وبين المستغلين والطغاة من صدام ، الا ان يكون الاسلام ستارا وهميا ، لا حقيقة واقعة . ولكن الطغاة والمستغلين لا يطمئنون ابدا الى دوام الغفلة من الجماهير ، ولا يامنون ان تستيقظ وهي في ظل حكم اسلامي . فتطالب بحقيقته لا قشوره ، ويصبح في يدها يومئذ سلاح قوي ، وحجة يصعب تفنيدها ، ومنبه كان يستخدم من قبل في التخدير!

وان المستغلين والطغاة ليعرفون جيدا ان الجماهير تصعب قيادتها وتسخيرها ضد عقيدتها الدينية ، فهم يرخصون لها بقشور هذه العقيدة وبخرافاتها ، فاما ان تصبح حقيقة وجداً ، فدون هذا وتتحرك الرغبة في الدفاع عن النفس والدفاع عن المصلحة ، وهما في واد والحكم الاسلامي في واد .

انه لا ضير من الاسلام حين يكون تمتمة بالشفاه وطقطقة بحبات المسابح ، او ادعية وتراتيل ، او محملا يطاف به سبعا ، ويسلم مقود الجمل الذي يحمله رسميا ! او مولدا تطلق فيه « السواريخ » او مشيخة طرق او نقابة اشراف تخلع فيها الخلع وتمنح فيها الالقاب .. الى آخر اجهزة التخدير التي يستغلها الطغاة والمستغلون ليلهوا بها الجماهير . فاما حين يصبح حكما جادا ينفذ شرائع الاسلام في الحكم والمال ، ويمنح الحقوق الانسانية والاجتماعية والقانونية لكل فرد وكل جماعة ، ولا يفرق بين الشعائر التعبدية والشرائع القانونية .. فدون هذا ويصبح الاسلام خطرا يتقى ، وكارثة تدفع ، ومعركة يخوضها الطغاة والمستغلون بكل ما يملكون !

وحينئذ يخلو الاستعمار الى الاستغلال ، ويخلو الاستغلال الى الاستعمار ، وتتلاقى مصلحتهما المشتركة في دفع هذا الخطر،

ورد هذا الاذى ، والوقوف في وجه الطوفان ، الذي لو اندفع لافرق هؤلاء وهؤلاء !

وحينئذ يستهين هؤلاء وهؤلاء حتى بخطر الشيوعية ، الذي لا يقاومه شيء كما تقاومه العدالة الاسلامية . لان الشيوعية خارج الابواب ، تمكن مدافعتها بالقوة وبالمغالطة . والاسلام داخل الابواب ، ومعه حجته التي تصعب فيها المغالطة والالتواء !

ان الاسلام الذي يثير في نفس الفرد العزة والكرامة ، ويمنعه الخضوع لحكم يخالف شريعته ، ويمنحه الامتداد والاستعلاء امام كل سلطة وكل جبروت .. هذا الاسلام لا يوافق السلطات الاستبدادية في الحكم ، ولا يضمن معه المستبدون البقاء .

وان الاسلام الذي يضع في يد الدولة تلك السلطات الواسعة، لتحدد الملكيات والثروات ، ولتأخذ منها ما يلزم لاصلاح المجتمع وتدع ما لا يضر ، ولتتحكم في ايجارات العقار ، وفي نسب الاجور ، ولتؤمم المرافق العامة ، وتمنع الاحتكار ، ولتحرم الربا والربح الفاحش والاستغلال .. هذا الاسلام لا يوافق الطبقات المستغلة، ولا يضمن معه المستغلون البقاء .

وعندئذ لا يسلط المستبدون والمستغلون على دعوة الاسلام الحديد والنار فحسب ، بل يسلطون عليها رجال الدين المحترفين، والكتاب المأجورين ، والصحافة الهازلة ، تتخذ منها غرضا للتهكم، وموضوعا للسخرية ، ويجد فيها التافهون من فتيان الصحافة في مصر مادة للتسلية تتفق مع تفاهة تفكيرهم ، وضحالة ثقافتهم ، وضآلة شأنهم في اية حياة اخرى جادة كريمة ، كالحياة الدافقة في ظل الاسلام .

والعجيب ان جماعة من المفكرين الجادين ، ينساقون كذلك مع التيار ، ويؤمنون بذلك الايحاء الذي تسلطه الرأسمالية على دعوة الاسلام ، فيتصورون ان الحكم الاسلامي سينالهم بالاذى ،

ويشفقون منه على حرية الفكر ، كما تخوّفهم ابواق المستغلين والطغاة !

ان حكم الاسلام لن يمس تفكيرا مستقيما بسوء ، ولن يمس وضعا مستقيما باذى . ولكنه حرب على الاوضاع الظالمة ، والسلطات الغاشمة ، ومادة قاتلة للتفكير الاعوج والهذر السخيف، لا بقوة الحديد والنار على طريقة حكم الاستبداد ، ولكن بالجدل الحسن ، وبدفعة الحياة الجادة التي لا تسمح بالهذر الفارغ ، ولا تجد المتبطلين الذين يستمعون الى هذا الهذر في جد الحياة .

عداوات المحترفين من رجال الدين

لعل اغرب العداوات لحكم الاسلام هي عداوة المحترفين من رجال الدين ، المحترفين على اختلاف مللهم ونحلهم وفرقهم وطرائقهم . ولكنها في الواقع ليست غريبة الا في ظاهر الاشياء . ان هؤلاء جميعا انما يعرفون ان ليس في الاسلام « رجال دين » يرتزقون باسم الدين وحده ولا يؤدون عملا آخر منه ياكلون .

ان الدين ليس حرفة في الاسلام ، الا ان يكون اشتغالا بتعليم الناس ، شانه شان اية مادة من مواد المعرفة الانسانية الاخرى . او قضاء في احوالهم المختلفة ، شانه شان اي تخصص في عمل من الاعمال .

وان هؤلاء جميعا ليعرفون ان الاسلام يطارد الدجالين، الذين يجمعون حوله الترهات والخرافات ، فالاسلام عقيدة بسيطة واضحة، لا تعتمد على المعجزات والكرامات والشفاعات والدعوات. انما تعتمد على العقيدة المستقيمة ، والسلوك النظيف ، والعمل الصالح ، والجد والانتاج

ولو حكم الاسلام فسيكون اول عمل له ان يطارد المتبطلين الذين لا يعملون شيئا ويعيشون باسم الدين ، والدجالين الذين

يلبسون وضوح الاسلام بغموض الاساطير ، ويستغفلون باسمه عقول الجماهير ، والدراويش الذين لا يعرف لهم الاسلام مكانا في ساحته ، ولا عملا في دولته . وهم في مصر كثير جد كثير .

والمحترفون من رجال الدين يعرفون ان لهم وظيفة اساسية في المجتمعات الاقطاعية والراسمالية ، وظيفة ترزقهم الدولة عليها، وتيسر لهم مزاولتها والكسب منها في المجتمع .. تلك هي وظيفة التخدير والتغرير بالجماهير الكادحة العاملة المستغلة المحرومة ، فاما حين يحكم الاسلام ، فيعطي هذه الجماهير حقهـا ، ويكف المستغلين والمستبدين عنها ، ويحدد الثراء الفاحش الذي يؤذي بمجرد وجوده نفوس المحرومين الممنوعين .. حين يتم هذا فما وظيفة هؤلاء المحترفين في المجتمع ؟ وما مكانهم في الدولة ؟ وما عملهم مع الجماهير ؟

ان حرفة الدين جزء من النظم الاجتماعية المختلة ، وقطعة اصيلة من اجهزة الحكم فيها ، فاذا صحت تلك الاوضاع، وسلمت تلك الاجهزة ، فحرفة الدين تصبح بلا طلب ولا ضرورة ، لان الدين ذاته سيستحيل عملا وسلوكا ، ونظاما ومجتمعا ، ولا يظل اقوالا وشعائر ، وتمتمة وتراتيل .

وتلك حقيقة واضحة لا يدركها اولئك المحترفون بافكارهم وعقولهم ، فهم يدركونها بحسهم وفطرتهم . وما ينبغي ان نشك في ذكاء هذا الفريق من الناس ، فان في الكثيرين منهم طاقة كبيرة من الذكاء والمهارة والبراعة، يستغلونها استغلال الحواة، ويستخدمونها استخدام السحرة ، ولو عاشوا في ظل نظام صالح يستغل هذه الطاقة استغلالا سليما ، فربما كسب المجتمع منها كسبا عظيما ! فاما الآن فهم مجرد تروس في جهاز الاستغلال . وهم مستنفعون مستغلون بدورهم ؛ وهم يدركون اخطار الحكم الاسلامي ، واقل هذه الاخطار الاستغناء عن خدمتهم السلبية التي لا يعرفها الاسلام !

عداوات المستهترين والمنحلين

لقد انتهينا في مصر الى مجتمع منحل مستهتر مريض، بفعل جميع العوامل السيئة الناشئة من الاختلال الاجتماعي الذي وصفنا اعراضه فيما سبق ، والناشئة كذلك من التيار العالمي المنحدر بين الحربين العالميتين الكبيرتين ، والحروب بطبيعتها تخلخل بناء المجتمع ، وتجرف معها الاستهتار والانحلال على الاقل بحكم التعرض للخطر والموت ، الذي يجعل انتهاب اللذائذ المتاحة امرا تدفع اليه دوافع الفطرة والضرورة .

وايا ما كانت الاسباب ، فقد انتهينا الى مجتمع تشيع فيه الفاحشة ، ويطفو على سطحه الاستهتار ، ويبدو الانحلال في كل جوانبه . سواء ما يتعلق بالجنس ، وما يتعلق بالمخدرات ، وما يتعلق بالذمة والضمير والخلق في العمل والسلوك .

هذه الجموع المستهترة المنحلة من الرجال والنساء يهولها - من غير شك - ان تسمع شيئا عن حدود الاسلام ، التي تفزع الفاحشين والفاحشات، بل عن اوامره ونواهيه التي تكبح النفوس، وتزجر الجناة ، وتمنعهم بحكم العرف وحكم القانون من التبجح والاستهتار .

وتدخل الاوكار النسوية المتناثرة هنا وهناك في هذا المجال، تلك الاوكار التي تشتغل بتفاهاتها الفارغات من النسوة والفتيات، على سنة الفراغ والتبطل الموحي بكل تافه من الافكار والاعمال .

ولقد اسلفت ان لا خوف من الاسلام على امراة فاضلة، تزاول نشاطها الانساني في حدود الشرف والكرامة . ولكن هذه الاوكار التي اعنيها تعرف ان هذا الشرط لا ينطبق على نشاطها ، وان الحرية الواسعة الكريمة التي يمنحها الاسلام للمراة ، لا تسع ذلك اللون من النشاط !

هذه الجموع من الرجال والنساء ، ومن الشبان والفتيات ، هذه الجموع التي لا تجد في الحرية الواسعة الكريمة التي يتيحها

الاسلام للشرفاء والشريفات ، كفاية لنشاطهـا .. تفزع من حكم الاسلام ، بحاسة الخوف على الذات ، وحب السلامـة ، والامن الذي تيسره لها الاوضاع الاجتماعية القائمة ، بما فيها من انحلال واختلال . فهي اذن بطبيعتها عدوة لحكم الاسلام الذي ليس فيه لها امان !

وتملك هذه الجموع نوادي وصحفا ، كما تملك نفوذا في جهاز الحكم ومرافق المجتمع ، بل ان نفوذها ليفوق كل نفوذ آخر في هذه البلاد ! انه النفوذ الذي يرتكن الى شهوات الجسم ونزوات الجسد، والى المال ، والى الحكم ، ويستخدم كل هذه القوى في مقاومة كل نظام يمكن ان يحدّ من هذه الفوضى ، وذلك الفساد .

وما زلت اذكر منذ سنوات كلمة احد الوزراء في ذلك العهد ، في رواق من اروقة مجلس النواب ، وقد خرج في اثناء مناقشة حادة حول « الغاء بيوت الدعارة العلنية ومكافحة بيوتها السرية » .. قال ــ لا بارك الله له في بدن ولا عافية ! ــ « ونحن اذن اين نذهب ؟ » واتبعها بقهقهة غليظة تابعه فيها الذيول والاذناب !

مثل هذا الوزير كثيرون في مصر ... وكثيرات ! يسمون هذه الفوضى الحيوانية السائدة في مصر حرية ، ويسميها بعضهم تقدما وحضارة ، ويباهي بالحديث فيهـا بشعور الحيوان المنطلق الشهوات . وبعضهم يسميها طلاقة فنية ، لأن الفن في نظرهم لا يكون الا اباحية قذرة مريضة ، وكأن الفن لا يعمر روح «انسان» !

وما أريد ان اخط هنا خطبة منبرية في الوعظ الشريف، كالتي صاغتها اقلام السادة الاجلاء من كبار العلماء ! ولكني اريد ان ادل على أن اختلال المجتمع المصري قد آتى كل ثماره الخبيثة العفنة الكريهة ، وان الحكم الاسلامي سيتولى علاج هذه الثمار باجتثاث الاصل الذي يطلعها ، بل بتطهير التربة التي تنبت فيها .

والذي أريد التنبيه اليه هنا ان نصيبا عظيمـا من الضجة القائمة ضد حكم الاسلام، انما ينبعث من المواخير والاوكار والجيف الطافية على وجه ذلك المستنقع الآسن الفسيح . المستنقع الذي

لا يخوض فيه اللصوص والسكارى والنخاسون والرقيق الابيض فحسب، بل تخوض فيه رؤوس كبيرة كثيرة في هذا البلد، وبيوتات فوق مستوى الشبهات !

فاذا سمع الناس هـذه الضجة ضد حكم الاسلام ، ورأوا احتفالا بمثيريها الاقزام ، فليعرفوا ان الزفة ليست للقزم الذي يلبس الريش ، ولكن للمستنقع الذي تخشى ديدانـه من المطهر الفتاك !

عداوات الشيوعية والشيوعيين

الشيوعية دعوة قاست من رجال الدين الأمرّين ، وهي تكافح لتحطيم حكم القياصرة ، واعطاء الجماهير ضروريات حياتها التـي كانت محرومة منهـا .

وهي نظرية فلسفية تنكر ان يكون في هذه الحياة مؤثر في سيرها ، خارج عن مادتها ، فهي تنكر منذ اللحظة الاولى ان يكون هناك اله ، ليس كمثله شيء في هذه الحياة .

وهي تقرر أن المؤثرات في سير التاريخ كلها ناشئة من الماديات الواقعية . فهي تنكر منذ اللحظة الاولى أن يكـون هنـاك رسـل يوحى اليهم .

وهي تعتنق مذهب التفسير المادي للتاريخ . فهي تنكر منذ اللحظة الاولى ان يكون للافراد ــ رسلا او ابطالا ــ ادوار انشائية في تطور المجتمع .

وهي ــ على ما فيها في الجانب الاقتصادي من موافقات كثيرة لبعض النظم الاسلامية ــ تناقض فكرة الاسلام الاساسيـة عـن الكون والحياة والانسان ، وتعاديه عـداء شديدا بسبـب هـذا الاختلاف الاساسي في طبيعة التفكير .

والشيوعية تعد نفسها في مرحلة حرب وكفاح ، فكل عقيدة

فيها جانب للروح ، وفيها حساب لله ، تعدهـا الشيوعيـة عدوة لها ، ولو كانت هنالك مشابه كثيرة في الجانب الاقتصادي بينهما . بل ان الشيوعية لتعادي الاسلام اكثر مما تعادي المسيحية ، لان المسيحية لم تعد قوة ايجابية في طريقها ، ولان الاسلام يملك ان يحقق عدالة اجتماعية اقتصادية ــ بجانب احتفاظه بالله في العقيدة واحتفاظه بالروح في الحياة ــ ومثل هذا خطر كل الخطورة علـى الدعوة الشيوعية التي تعتمد اول ما تعتمد علـى سـوء الاحوال الاجتماعية ، وياس الجماهير من ان تجد لها طريقا الـى العدالـة غير الشيوعية .

وقد احست الشيوعية هذا في السنوات الاخيرة ، فاخذت تجند لمحاربة الدعوة الى الحكم الاسلامي جهودها ، وتبث ضد هذه الفكرة دعايتها . وهذه الدعاية تاخذ طريقها في شعبتين :

الشعبة الاولى : هي تشويه صورة الحكم الاسلامي ، مستغلة تلك الصورة المزورة للحكومة الاسلامية في بعض الشعوب الشرقية . وبيان عدم جدية هذا الحكم ، وغموض الاسس التي يرتكن اليها ، وصلاحية هذا الغموض للتأويل والاستغلال ضد الجماهير ، وضد الحرية والمفكرين الاحرار .

والشعبة الثانية : هي الالحاح في القول بان العالـم ينقسم فقط الى كتلتين اثنتين : الشرقية والغربية . وان عدم الانضمـام الى الجبهة الشرقية ، معناه تقوية الجبهة الغربية . وكذلـك اي تفكير في ايجاد كتلة ثالثة ، معناه تجزئة القوى ممـا يقوي جبهـة الراسماليـة !

ولقد كشفنا ما في هذا القول وذاك من مغالطة ، وما يخفي وراءه من اغراض . والمهم ان يفطن الناس حين يسمعـون الدعوة ضد الحكم الاسلامي الى بواعثها الحقيقية .

ان الشيوعيين يتعصبون لمذهبهم تعصبا يجعله في نظرهـم غاية في ذاته ، لا وسيلة لتحقيق عدالة اجتماعية ، لذلك يهمهم ان

يسدوا في وجوه الجماهير اي طريق آخر يمكن ان يحقق لها عدالة حقيقية ، كي لا يبقى هناك الا طريق واحد : طريق الشيوعية .

ولا يجوز ان نغفل كذلك ان ليس التعصب المذهبي وحده هو الذي يملي على دعاة الشيوعية خطتهم ، بل ان الدولة الروسية لها من ذلك شيء ! فالشيوعية وسيلة الى السيطرة على كل دولة تعتنقها ، وليس مجرد اعتناقها كافيا ان هي رفضت النفوذ الروسي . وهذه يوغوسلافيا شيوعية لا يطعن احد في شيوعيتها ، ولكنها رفعت راسها امام ذلك النفوذ ، فحلت عليها اللعنة ، ولم تشفع لها شيوعيتها !

وفي مصر تتدخل عوامل اخرى غير التعصب للشيوعية ، ويجب ان نحسب لهذه العوامل حسابها .. ان في مصر شيوعيين لا لانهم يحبون الشيوعية ، بل لانهم يكرهون الاسلام ، فكل ما يحارب الاسلام اذن هو لهم صديق !

وهم يتظاهرون امام المغفلين من المسلمين بانهم مجردون من كل تعصب ديني، لا يحفلون كل الاديان : وهم فيحقيقتهم صليبيون، ينصبون للاسلام وحده « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم ، انما نحن مستهزئون » !

وما احب ان افيض في هذا الموضوع ، ولكن احب ان انبه كل مسلم من الابرياء الذين تخدمهم هذه المؤامرة الى ان يتأكد من الباعث الاول على الطعن في الاسلام وحكم الاسلام . فقد لا تكون الشيوعية الا ستارا لذلك الطعن الخبيث . واحب لكل فتى من فتيان المسلمين انزلقت خطاه الى خلية شيوعية ، ان يتلفت ، فان وجد فيها معه احدا من هؤلاء الصليبيين المستترين ، فلياخذ حذره انها عمل لحساب الصليبية ، لا لحساب الشيوعية ، ولا العدالة الاجتماعيـــة .

ووددت ان انتهي الى هذا الحد في الفصل ، اولا دعاية تنبض في خاطري حول بعض شيوعيينا المصريين الاعزاء ، الذين يتحدثون

احيانا ضد حكومة الاسلام !

معظم هؤلاء الاعزاء ، يتناولون الحديث في هذه الشؤون ، وهم « منسجمون » في خدر الحشيش اللذيذ ، وامامهم جمرات من الفحم وحولها دخان النرجيلة المتلوي !

هؤلاء الرفاق المريحون ، لا يريدون مواجهة الواقع السيء في دنيا الناس ــ ونحن نشفق عليهم فهم ضحايا بريئة لذلك الواقع الاليم ــ وهم يهربون منه في خدر الحشيش اللذيذ ، يحلمون الاحلام المريحة عن « بابا ستالين » وهو يدس لهم في « شجرة الهدايا » عدالة اجتماعية لذيذة ، لا يتعبون حتى في تناولها .

فما لهم اذن ولهذا الاسلام المتعب ، الذي يكلفهم جهدا ومشقة ، بل ويفرض عليهم الصحو والعمل .. دعنا يا عم دعنا من هذا الاسلام ، ومن متاعبه الجسام . وغدا نصحو من المنام ، على وقع خطوات « ستالين الهمام » .

والآن أيتها الجماهير......

الآن ينبغي أن تتولى الجماهير الكادحة المحرومة المغبونة قضيتها بأيديها . ينبغي أن تفكر في وسائل الخلاص .. وتختار .

ان احدا لن يقدم لهذه الجماهير عونا الا انفسها ، فعليها أن تعنى هي بامرها ، ولا تتطلع الى معونة اخرى .

انه لا الاحزاب التي تتولى الحكم جماعة او فرادى ، ولا الصحافة الحزبية او غير الحزبية ، ولا هيئة الامم ، او احدى دولها الراسمالية ، ولا الشيوعية كذلك في النهاية .. انه لا احد من هؤلاء جميعا سيمد يده الى الجماهير الكادحة في مصر ، الا أن تمد تلك الجماهير يدها الى قضيتها .

ونظرة الى ظروف هذه المؤسسات وحقيقتها تكفي لاقناع من يريد الاقتناع ، ان الاعتماد على اي منها في نصرة قضية الجماهير ، ان هو الا مجرد تواكل وغفلة وتقصير .

***

هذه التشكيلات الحزبية . من تمثل ؟ انها لا تمثل الجماهير قطعا لا بعقليتها ولا بمصلحتها ولا بظروفها . من هم الذين يشترط القانون ان يكونوا شيوخا في البرلمان ؟ انهم الذين يملكون نصابا معينا من المال !

أفي تلك الملايين من الجماهير الكادحة واحد فقط تنطبق عليه هذه الشروط ؟!

ومن هم الذين تسمح لهم الظروف أن يكونوا نوابا في البرلمان؟

انهم الذين يملكون اولا أن يدفعوا التامين وهو مائة جنيه وخمسون، ثم يملكون ثانيا ان ينفقوا آلاف الجنيهات على المعركة الانتخابية ، وسماسرتها وحفلاتها وتنقلاتها وولائمها وذيولها ، ثم يملكون ثالثا ان يتصلوا بحزب يرشحهم ويسندهم ويتقاضى منهم جزاء الترشيح ضريبة خزانته التي تتراوح بين المئات والالوف .. افبين الجماهير الكادحة من تنطبق عليه هذه الشروط ؟!

كلا ! وليس وراء الجماهير الفقيرة المستغلة تنظيمات وتشكيلات قوية من النقابات والاتحادات ، تتولى ادارة المعركة الانتخابية باموالها وبنفوذها ، كي تقدم الى البرلمان مرشحين منها، يعبرون عن آلامها وآمالها .

واذن فستبقى الجماهير الكادحة المحرومة المغبونة في جانب ، وتبقى التشكيلات الحزبية والبرلمانية في جانب ، ويبقى الصراع بين المصالح المتعارضة قائما . الى أن تتولى الجماهير امر نفسها ، فتنشىء من التشكيلات ما يملك الانتصار في معركة الانتخابات وغير الانتخابات . والى ان يتم هذا فلا ينبغي ان تعلق الجماهير املا على الصراع الحزبي القائم ، ولا ان تتطلع الى حزب دون حزب ، ولا أن ترجو النصفة على وثبة حزب من هذه الاحزاب على كراسي الحكم ، بانتخاب او بغير انتخاب .

هذه الحقيقة تؤيدها كل تجارب الماضي الحزبي والبرلماني في مصر منذ ربع قرن مضى . ان هذا الصراع الحزبي لم يكن مرة واحدة على مصلحة الجماهير ، وانما كان دائما على كراسي الحكم ، وما وراءها من مغانم ، ومن ارضاء واغناء للمحاسيب والهتافة والاقارب والاصهار !

فاما حين يلوح في الافق شبح الخطر على مصلحة صغيرة من مصالح الراسمالية ، فينسى المتصارعون احقادهم ، ويترك المتخاصمون خصوماتهم ، ويقف الجميع صفا واحدا في وجه ذلك الخطر الصغير ، الوفدي والسعدي والدستوري سواء ، يدافعون

عن مصالح الراسمالية المهددة ، ضد مصلحة الجماهير المحرومة .

وما على من يتشكك في هذه الحقيقة البارزة الا ان يعود الى مضابط البرلمان ، عند نظر مشروع الضريبة التصاعدية ، او مشروع الارباح الاستثنائية ، او مشروع ضريبة التركات ، او مشروع نقابات العمال ، وبخاصة مسالة حرمان خدم البيوت من حق تكوين النقابات .. او كل مشروع يحمل رؤوس الاموال شيئا من التكاليف التي تحملها رؤوس الاموال في كل جوانب الارض ، الا في ارض الاقطاع .

انه سيجد المعارضين يمثلون اشخاصهم ومصالح طبقتهم ولا يمثلون احزابهم وهيئاتهم . ذلك انهم جميعا راسماليون قبل ان يكونوا وفديين او سعديين او دستوريين !

وها نحن اولاء امام مثل قريب ، يدركه كل فرد في هذه الامة ، لانه يتجرعه ويكتوي بناره : ها نحن اولاء امام الغلاء الفاحش ، الذي يفغر فاه كالغول ليلتهم الاخضر واليابس ، ويمتص دماء الملايين في نهم بشع لتنتفخ بها الاوداج ، وتتخم بها الكروش.. فماذا صنعت الدولة وماذا صنع البرلمان لمكافحة ذلك الغول الجبار؟

بيانات واحاديث ، ثم بيانات واحاديث ، ثم حملات تفتيشية على الاسواق . الاسواق هنا في القاهرة حيث الحلقة الاخيرة وحدها من سلسلة الغلاء الطويلة .

ان الغلاء لا ينبع هنا بل يصب . والقائمون بالامر يعرفون ، ولكنهم لا يجرؤون على ان يمسوا ذلك المنبع بسوء ، لأنهم هم ممثلوه والمنتفعون به ، والمشتركون فيه !

ان اقواتنا واشياءنا تأتي لنا من مصدرين : مصدر داخلي مما نزرعه ونربيه ونصنعه في الداخل ، ومصدر خارجي مما نستورده من ماكولات ومصنوعات وادوات وخامات .

والدولة تعلم ان المالك يؤجر الفدان الواحد بخمسين وستين

جنيها الى ثمانين . فماذا تنتظر الا ان تكون اسعار الحاصلات الناشئة من هذا الفدان عالية ، واسعار الماشية التي ترعى هذا الفدان عالية ، واسعار منتجات البانها كلها عالية . . . وما الذي يجدي ان تحارب الغلاء هنا في القاهرة ، وتدعه في منبعه يتزايد ويتصاعد في سعار ؟

ان الحل ميسور : ان تتحكم الدولة في التصدير والاستيراد ، وان تشتري لحسابها كل المحصولات التي تصدر الى الخارج وفي اولها القطن بسعر يجزي الزراع ، ثم تبيعها هي لحسابها بالاسعار العالمية ، فأما الحصيلة الناشئة من الفرق ، فتساهم بها في تخفيض سعر الواردات حين تباع للمستهلك ، وتسد بها الفرق بين ثمن شرائها المرتفع وثمن بيعها المناسب للجماهير .

وبعد ذلك لا قبله تجدي التسعيرة ، وتجدي حملات التفتيش ، ولكن من الذي يفعل ذلك . أهي حكومة الراسمالية وبرلمان الراسمالية ؟ ولحساب من ؟ لحساب الجماهير ، ومصلحة الجماهير ؟!

والمشروعات المعطلة التي لا تنتهي ابدا ، بينما الثروة القومية تنهار ، ومستوى الدخل الفردي ينحط ، والمتعطلون يملأون جنبات الوادي . لم لا تنفذ ؟ لأن تنفيذها يقتضي مالا ، والمال في جيوب الاثرياء . والاثرياء في الوزارة وفي البرلمان !!

هذا والجماهير تتصايح : يسقط ويحيا . والحواة يلهونها بالجلاء والوحدة . والاستعمار لا يحفل هذا الصياح ، لانه يعلم جيدا ان هذه بضاعة معدة للتصدير الى الداخل ، وان مصالحه الاساسية مصونة ، لا بجيوش الاحتلال ، ولكن بالمحالفة الطبيعية التي بينه وبين رؤوس الاموال ! فما عليه ان تهتف الجماهير حتى تتمزق حناجرها ، وهذه الجماهير لا تملك من الامر شيئا ، والذين يملكون الامر كله يحرصون على بقائه سندا لهم ضد الجماهير ، التي ستفرغ الى تحقيق العدالة الاجتماعية في اللحظة التي تفرغ

فيها من تسوية القضية المصرية .

ان الغفلة والبله هما اللذان يصوران للجماهير في مصر ان حزبا ما في هذا البلد يرغب رغبة حقيقة في الجلاء والوحدة ، وفي حل القضية المصرية على اساس يبعد نفوذ الاستعمار ، وقوة الاستعمار . وان هذه الاحزاب جميعا لتعلم ان تلك القضية هي « عدة الشغل ! » التي تلعب عليها ، فضلا على ان الاستعمار هو خط الدفاع الاخير لحماية المصالح الحقيقية التي تمثلها !

كل ما هناك من فروق ، هو فروق الاساليب التي تخاطب بها الجماهير ... فرجل كصدقي لم يكن يخفي حرصه على ربط مصر بعجلة الامبراطورية عن طريق الدفاع المشترك . لان الرجل كان يعرف حلفاءه الطبيعيين ، وحلفاء اتحاد الصناعات الذي كان على راسه ... فاما الآخرون فقد يهتفون مع الجماهير : يسقط الاستعمار .. كي تذهب الجماهير فتستنيم ، أو لتشق حناجرها بالهتاف للمجاهدين ! وذلك اعتمادا على غفلة الجماهير الساذجة ، وانها لا تدرك المحالفة الطبيعية بين مصالح الاستعمار الحقيقية في هذه البلاد ، والمصالح الحقيقية التي تمثلها كل الاحزاب !

فاما الصحافة فليست في وضع يمكنها من الوقوف في صف الجماهير ضد الطغاة والمستغلين ، ولا ضد الاستعمار ووراءه الراسمالية العالمية القوية .

ان الصحيفة مؤسسة تجارية قبل كل شيء ، وعليها ان توازن ميزانيتها على الاقل لتعيش ، وقد اصبحت المنافسة الصحفية عنيفة في دائرة القراء المحدودين ، وهذه المنافسة تقتضي تحسينات صحفية ، وتكاليف متصاعدة ، وموارد مالية كبيرة .

والرواج في التوزيع لا يقلل من نفقات الجريدة ، بل يزيد خسائرها اذا وقفت عند حدود البيع . ذلك أن تكاليف النسخة الواحدة من اية جريدة كبيرة ، يومية او اسبوعية ، اكثر من السعر الذي تباع به هذه النسخة في السوق . وهذه حقيقة قوية يجب

ان تكون في الحساب ، ليعرف الجمهور الفقير الكادح انه ليس هو الذي يمول الجريدة الرائجة بقروشه وملاليمه ! انما تعتمد هذه الصحف في وجودها وبقائها وربحها على موارد اخرى غير القروش والملاليم . تعتمد اولا على الاعلانات . وهذه الاعلانات تملكها شركات راسمالية ضخمة ، تخدم بدورها المؤسسات الراسمالية التي تتولى الاعلان عنها .. وتعتمد ثانيا على المصروفات السرية المؤقتة او الدائمة : المؤقتة التي تدفعها الوزارات لصحافتها الحزبية ، او للصحف التي تريد شراءها ، او ضمان حيادها ، (وهي في العادة دفعات ضخمة) . والدائمة التي تتولى ادارة المطبوعات صرفها اما لصحف واما الصحفيين بصفة دائمة على اختلاف العهود ، لخدمة الاغراض الحكومية الدائمة التي لا تتعلق بحزب دون حزب .. وتعتمد ثالثا على المصروفات السرية لاقلام المخابرات الدولية ، وبخاصة انجلترا وامريكا .. ذلك عدا نفقات الدعاية المباشرة للشركات وللبيوتات ولبعض الجهات .

هذه الموارد هي التي تعوض الفرق بين تكاليف النسخة وسعرها الذى تباع به في السوق . ثم تشتري المطابع الضخمة ، وتبني الدور الفخمة ، وتوفر وسائل الدعاية والاعلان للصحيفة . فأما الرواج وحده بارتفاع مقطوعية البيع ، فقد كان من شانه أن يضاعف خسائر هذه الصحف لا ان يكون سببا للربح ، فكلما زاد عدد النسخ زادت الخسارة !

ان فائدة الرواج في مقطوعية البيع فائدة غير مباشرة ، ذلك انها ترفع سعر الاعلان في الصحيفة ، وترفع سعرها في دائرة المصروفات السرية ، داخلية كانت أو خارجية ، وهذه هي كل قيمة الرواج بالنسبة الى اية صحيفة .

فاذا عرفنا هذه الحقيقة ادركنا ان الصحافة ليست في وضع يمكنها من الوقوف في صف الجماهير . انما هي تعطي الجماهير بقدر القروش والملاليم التي تدفعها ثمنا للنسخ الموزعة ، وتعطي

المولين الحقيقيين : سواء كانوا اصحاب المؤسسات الراسمالية ، او الجهات الحكومية ، او اقلام المخابرات الدولية بقدر جنيهاتها ودولاراتها ، وتقسم جهودها بين الفريقين قسمة بارعة تناسب غفلة الجماهير وسذاجتها ، وذكاء الجبهة الاخرى وخبرتها !

فاما صحافة الراي التي تعمل للجماهير الكادحة وحدها ، فهي مطاردة من الدولة ، ومن الراسمالية المحلية والعالمية ، ومن قوى الاستعمار جميعا ... ثم هي مطاردة من الجماهير الساذجة ذاتها ، لان مواردها لا تسمح لها بالمظاهر الصحفية الخلابة ، ولان ضمائرها لا تسمح لها بصور الافخاذ والنهود ، وبتلهية الجماهير وتخديرها بالدردشة المسلية اللذيذة ! وعندئذ تعرض عنها الجماهير نفسها ، ولا تقف بجانبها بقروشها وملاليمها ، على حين تستند الصحافة الاخرى الى الجنيهات والدولارات المتدفقة من الجبهة الاخرى .

ان صور الافخاذ والنهود هي التسلية التي تقدمها صحافة الراسماليين للجماهير المحرومة ،كي تلهيها عن استمتاع الراسماليين الفاجر بتلك الافخاذ والنهود الحقيقية لا بصورها !.. والدردشة الفارغة التي تملأ صفحات وصفحات ، هي المخدر الذي تسرق به هذه الصحف جهد القارىء واهتمامه ، لتشغله عما هو فيه من بؤس وحرمان . وما يمكن ان يخدم الراسمالية احد ، كما يخدمها بهاتين الوسيلتين الخبيثتين ، اللتين تقبل عليهما الجماهير البلهاء اقبالها على الحشيش والافيون !

***

واليوم تبشر الراسماليةالجماهير المحرومةببشارة جديدة.. تبشرها بجهود هيئة الامم في محاربة الفقر ، وبحلقات الدراسات الاجتماعية التي تشرف عليها لدراسة مشكلات الجماهير ، وبالنقطة الرابعة في برنامج ترومان .

فماذا بالله يريد الجاحدون في هذا البلد العاق ، الـذي لا يعرف الفضل ، ولا يشكر الجميل ؟

فاما الراسمالية في هذا البلد فهي حريصة على الاستفادة من جهود هيئة الامم هذه ، وهي حفية بحلقات الدراسة الاجتماعيـة التي تعقدها ، وتنشر في الصحف اخبارها ، وتشغل بها الناس اياما واسابيع . اليست وسيلة اساسية من وسائــل تلهيــة الجماهير وتخديرها وانامتها الى حين ؟!

وصحافتها لا تني تنشر بالخط العريض تلك الانباء الناطقــة بعطف المنظمات الدولية واهتمامها البالغ بقضية العدالة الاجتماعية في مصـــر .

اليست وسيلة بارعة من وسائل استمالة الجماهــير الــى الاستعمار ، لتلقي عليه اعباءها الثقال ، وتكل اليه تحقيق العدالة الاجتماعية التي تتلهف عليهــا ولا تراها ؟!

ولكن الجماهير ينبغي ان تعلم ان المصلحــة المشتركــة بين الراسمالية العالمية تعقد بين ممثليها جميعا في الشرق والغرب حلفا طبيعيا ، ضد الجماهير ومصالح الجماهير . وأن المصالح المشتركة بين الاستعمار والراسمالية المحلية تعقد بينهما كذلــك محالفــة طبيعية قوية الاواصر .

ينبغي أن تدرك الجماهير أن الاستعمار لا يحب ان يواجــه الجماهير بوجهه الكالح ، فلا بد له من ستار ، يحكــم بواسطته ، وينفذ اغراضه عن طريقه ، ويضمــن مصالحه بواسطته . هــذا الستار هو الطبقة الراسمالية الحاكمة ، التي يكل اليهــا مقاليد الامور ويستريح ، ومحال ان يحاربها او ان تحاربــه الــى الحــد الذي يقتل او يضعف ، ويمكن للجماهير .

ينبغي أن تعرف الجماهير ان الاستعمار منذ قدومه قد عمل على تكوين هذه الطبقة . وأن الخونة الذين مهدوا لــه الطريق ، وخذلوا الجيش المصري او خانوه او غشوه ، قد اغــدق عليهــم

الاستعمار ومكّن لهم في الارض ، وذرياتهم اليوم من اصحاب البيوتات في مصر ومن ذوي الضياع الواسعة ، وممن يسمون في هذا البلد المسكين : « اصحاب البيوت الكريمة العريقة ! »

واخيرا يجب أن تعرف الجماهير ان الاستعمار حريص على تجويع الجماهير . لانه يعرف ــ كما قال ممثله مرة « جورج لويد » في كتابه : ان الرخاء في سنة ١٩١٩ هو الذي شجع على قيام الثورة المصرية . لهذا يجب ان تجوع الجماهير في مصر ، كي لا تفيق من البحث عن اللقمة ، فتتجه للثورة على الاستعمار من جديد !

***

بقيت الشيوعية التي يحلم بها الكسالى في مصر على دخان الحشيش وخدره اللذيذ !.

هم يقولون لك : لا فائدة ! فلننتظر الخلاص على يدي « بابا ستالين » !

ان الراسمالية ستحارب كل دعوة الى العدالة الاجتماعية ، وتناهضها بالقوة وبالحيلة وبالمال ، وبشراء الذمم واستغفال الجماهير .

كل هذا صحيح ! ولكن متى انتصرت قضية واحدة في تاريخ الدنيا بغير صراع قصير أو طويل ؟

ان الشعوب التي لا تكافح من اجل الحرية لن تستحق الحرية . واذا نحن جلسنا مستريحين ، ندخن الحشيش ، أو نحلم بالاماني ، فستاتي الشيوعية ــ لو جاءت ــ لتجدنا ذيولا ذليلة ، تسومنا سوم العبيد .

ان الكرامة الانسانية وحدها توجب علينا ان نعمل شيئا

نستحق به الخلاص والحرية . والا فسنخرج من ذل الى ذل ، يتغير عنوانه ، ويتبدل أسياده ، والعبيد هم العبيد !

***

والآن ايتها الجماهير .. لقد تبين ان احدا لن يمد يده اليك ما لم تمدي انت يدك اليك ! وان الطرق جميعا لا تؤدي الى الخلاص الحق ، اللهم الا طريقك الواحد الاصيل !

ايتها الجماهير .. لقد تعين لك طريق الكرامة الانسانية ، وطريق العدالة الاجتماعية ، وطريق المجد الذي عرفته الامة الاسلامية مرة ، والذي تملك ان تعرفه مرة اخرى .. لو تفيق .

ايتها الجماهير .. ها هوذا الاسلام حاضر يلبي كل راغب في العزة والاستعلاء والسيادة . وكل راغب في المساواة والحرية والعدالة . وكل من يؤمن بنفسه وقومه ووطنه . وكل من يشعر ان له مكانا كريما في ذلك الوجود .

ايتها الجماهير .. هذا هو الطريق .. هذا هو الطريق ..

فهرس

صفحة

من كتب دار الشروق الإسلامية

مصحف الشروق المفسر الميسر
مختصر تفسير الإمام الطبري
تحفة المصاحف وقمة التفاسير
في أحجام مختلفة وطبعات منفصلة لبعض الأجزاء

تفسير القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الإسلام عقيدة وشريعة
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الفتاوى
الإمام الأكبر محمود شلتوت

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

إلى القرآن الكريم
الإمام الأكبر محمود شلتوت

الوصايا العشر
الإمام الأكبر محمود شلتوت

المسلم في عالم الاقتصاد
الأستاذ مالك بن نبي

أنبياء الله
الأستاذ أحمد بهجت

نبي الإنسانية
الأستاذ أحمد حسين

ربانية لا رهبانية
أبو الحسن علي الحسيني الندوي

الحجة في القراءات السبع
تحقيق وتقديم الدكتور عبد العال سالم مكرم

الفكر الإسلامي بين العقل والوحي
الدكتور عبد العال سالم مكرم

على مشارف القرن الخامس عشر الهجري
الأستاذ ابراهيم بن علي الوزير

الرسالة الخالدة
الأستاذ عبد الرحمن عزام

محمد رسولاً نبياً
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

مسلمون بلا مشاكل
الأستاذ عبد الرزاق نوفل

الإسلام في مفترق الطرق
الدكتور أحمد عروة

العقوبة في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

موقف الشريعة من نظرية الدفاع الاجتماعي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الجرائم في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

مدخل الفقه الجنائي الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

القصاص في الفقه الإسلامي
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الدية في الشريعة الإسلامية
الدكتور أحمد فتحي بهنسي

الإسراء والمعراج
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي

القضاء والقدر
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
قضايا إسلامية
فضيلة الشيخ متولي الشعراوي
التعبير الفني في القرآن
الدكتور بكري الشيخ أمين
أدب الحديث النبوي
الدكتور بكري الشيخ أمين
الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
اليهود في القرآن
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
أيام الله
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
مسلمون وكفى
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
الدعوة الوهابية
الأستاذ عبد الكريم الخطيب
قال الأولون ـ أدب ودين
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
قل يا رب
الأستاذ السيد أبو ضيف المدني
الإيمان الحق
المستشار علي جريشة
الجديد حول أسماء الله الحسنى
الأستاذ عبد المغني سعيد
الجائز والممنوع في الصيام
الدكتور عبد العظيم المطعني

مناسك الحج والعمرة في ضوء المذاهب الأربعة
الدكتور عبد العظيم المطعني
أيها الولد المحب
الإمام الغزالي
الأدب في الدين
الإمام الغزالي
شرح الوصايا العشر
للإمام حسن البنا
القرآن والسلطان
الأستاذ فهمي هويدي
خفايا الإسراء والمعراج
الأستاذ مصطفى الكيك
الخطابة وإعداد الخطيب
الدكتور عبد الجليل شلبي
تأريخ القرآن
الأستاذ إبراهيم الأبياري
الإسلام والمبادئ المستوردة
الدكتور عبد المنعم النمر
سلسلة أعلام الإسلام ١/١٦
سلسلة أهل البيت ١/٦
إسهام علماء المسلمين في الرياضيات
تأليف الدكتور علي عبد الله الدفّاع
تعريب وتعليق الدكتور جلال شوقي
مراجعة الدكتور عبد العزيز السيد
الخبر الواحد في السنة والتراث وأثره في الفقه الإسلامي
الدكتورة سهير رشاد مهنا
الأديان القديمة في الشرق
دكتور رؤوف شلبي

رقم الايداع : ١٩٨٩/٨٧٠٥
الترقيم الدولى : ٨ ـ ٨ ـ ٣٥١ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسنى ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣

مكتبة
سيد قطب

في ظلال القرآن
العدالة الاجتماعية في الإسلام
خصائص التصور الإسلامي ومقوماته
النقد الأدبي أصوله ومناهجه
كتب وشخصيات
الإسلام ومشكلات الحضارة
التصوير الفني في القرآن
مشاهد القيامة في القرآن
معركتنا مع اليهود
تفسير سورة الشورى
تفسير آيات الربا
دراسات إسلامية
السلام العالمي والإسلام
معركة الإسلام والرأسمالية
في التاريخ فكرة ومنهاج
معالم في الطريق
هذا الدين
المستقبل لهذا الدين
نحو مجتمع إسلامي